الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العـالي والبحـث العلمي

جامعة محمد الصديق بن يحيى –جيجل–

كلية الآداب واللغات قسم اللغة والأدب العربي

مذكرة بعنوان:

صورة البحر في الرحلات العربية القديمة

نماذج مختارة

مذكرة مكملة لمتطلبات نيل شهادة الماستر في اللغة والأدب العربي

تخصص: أدب قديم

إعداد الطالبتين: إشراف الأستاذ:

❖ نسرين بولحليب – رؤوف قماش

❖ إلهام بوزول

الإسم واللقب	الرتبة العلمية	الجامعة	الصفة
الأستاذ: عبد الفتاح جحيش	أستاذ محاضر "ب"	جيجل	رئيسا
الأستاذ: رؤوف قماش	أستاذ مساعد "أ"	جيجل	مشرفا
الأستاذ: نور الدين سعيداني	أستاذ محاضر "أ"	جيجل	ممتحنا

السنة الجامعية:

2021 / 2022 م

1443 / 1444 هـ

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العـالي والبحـث العلمي

جامعة محمد الصديق بن يحيى –جيجل–

كلية الآداب واللغات قسم اللغة والأدب العربي

مذكرة بعنوان:

صورة البحر في الرحلات العربية القديمة

نماذج مختارة

مذكرة مكملة لمتطلبات نيل شهادة الماستر في اللغة والأدب العربي

تخصص: أدب قديم

إعداد الطالبتين: إشراف الأستاذ:

❖ نسرين بولحليب – رؤوف قماش

❖ إلهام بوزول

الإسم واللقب	الرتبة العلمية	الجامعة	الصفة
الأستاذ: عبد الفتاح جحيش	أستاذ محاضر "ب"	جيجل	رئيسا
الأستاذ: رؤوف قماش	أستاذ مساعد "أ"	جيجل	مشرفا
الأستاذ: نور الدين سعيداني	أستاذ محاضر "أ"	جيجل	ممتحنا

السنة الجامعية:

2021 / 2022 م

1443 / 1444 هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وتقدير

نستهل فاتحة شكرنا لله عز وجل أولا وقبل كل شيء على النعمة التي
أنعمنا إياها، والذي أعطانا القدرة لإتمام هذا العمل المتواضع
كما نتقدم بالشكر الجزيل للأستاذ المشرف " **رؤوف قماش** "
الذي نكن له كل التقدير والاحترام والذي لم يبخل علينا بإرشاداته
ونصائحه القيمة والتي مكنتنا من انجاز هذا العمل
وإلى الأساتذة الذين تداولوا على تلقيننا دروب العلم والمعرفة في جميع الأطوار
خاصة الطور الجامعي كما نشكر كل من ساعدنا من قريب أو من بعيد
الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله
ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم.

* نسرين * إلهام *

إهداء

أهدي هذا العمل إلى أبي الغالي وسندي في الحياة حفظه الله وأدامه تاجا فوق رؤوسنا، إلى من ركع العطاء أمام قدميها وأعطتنا من دمها وروحها وعمرها حبا وتصميما ودفعا لغد أجمل، إلى الغالية التي لا نرى الأمل إلا من عينيها "أمي" الحبيبة التي مهما تكلمت عنها لن أوفيها حقها.

إلى من ترعرعت معهم ونما غصني بينهم، إخوتي وأخواتي

إلى كل الأهل والأقارب من قريب ومن بعيد.

إلى كل من علمني حرفا أصبح نورا يضيء الطريق أمامي.

إلى كل من ساعدني في إنجاز هذا العمل المتواضع ولو بكلمة طيبة وابتسامة صادقة أهدي هذا العمل.

❁ نسرين ❁

إهداء

أهدي هذا العمل إلى أبي الغالي وسندي في الحياة حفظه الله وأدامه تاجا فوق رؤوسنا، إلى من ركع العطاء أمام قدميها وأعطتنا من دمها وروحها وعمرها حبا وتصميما ودفعا لغد أجمل، إلى الغالية التي لا نرى الأمل إلا من عينيها "أمي" الحبيبة التي مهما تكلمت عنها لن أوفيها حقها.

إلى من ترعرعت معهم ونما غصني بينهم، إخوتي: فارس، عبد العالي، عبد المالك، عبد السلام، عبد الباقي

وأخواتي: نسرين، مليكة

إلى براعم العائلة: أنفال، أمينة، وائل، سند عبد الرحمن، شرف أطال الله في عمرهم

إلى قرة عيني وفلذة كبدي إبن أخي إسحاق أطال الله في عمره ورعاه.

إلى روح ابن أخي الطاهرة عبد الرحمن رحمه الله وأسكنه فسيح جنانه

إلى كل الأهل والأقارب من قريب ومن بعيد.

إلى كل صديقاتي وزميلاتي في الدراسة دون استثناء

إلى كل من علمني حرفا أصبح نورا يضيء الطريق أمامي.

إلى كل من ساعدني في إنجاز هذا العمل المتواضع ولو بكلمة طيبة وابتسامة صادقة أهدي هذا العمل.

إلهام

مقدمة

يعد أدب الرحلة من أشكال السرد العربي ذات الإرث العريق، وقد قام الرحالة العرب بوصف الكثير من النواحي التي زاروها في ديار المسلمين أو خراجها، سواء في بلاد السند والهند والصين وأوروبا، والأندلس، إفريقيا وبلاد الشام وفارس وغيرها من البلدان، وكان وصفهم دقيقا، حيث وصفوا الجغرافيا أرضا وأنهارا، وبحارا، والطعام واللغة والعادات والتقاليد وغيرها من الأمور التي تتصل بالبشر.

ويعد القرن الرابع الهجري الفترة التي بدأ فيها الرحالة العرب بتأليف وتدوين مشاهداتهم ورحلاتهم، من أمثال ابن فضلان، برزك شهريار، المسعودي، ابن حوقل، وآخرون غيرهم، وتقدم الرحلات العربية أخبارا ومعارف ينتفع بها الباحثون حول تاريخ البلدان وطبيعة سكانها، كما أنها تفيد من الناحية الجغرافية فهي مصادر غنية بمختلف مظاهر حياة المجتمعات قديما، كما أنها حافلة بالمادة التاريخية والجغرافية والثقافية.

ويعد فضاء البحر عنصرا وفضاءا مهما في الرحلة العربية القديمة، حيث اهتم به الرحالة العرب كثيرا.

ومن هنا جاءت أهمية الموضوع الذي يقوم بدراسة صورة البحر في الرحلات العربية القديمة، ويكشف عن المرتكزات الأساسية التي قامت عليها نظرة الرحالة العرب في تصويرهم للبحر، وهو أمر لم تهتم به الدراسات التي تناولت أدب الرحلة العربي القديم كثيرا وبشكل كاف يفيه حقه، حيث شغلوا أنفسهم بدراسة مضامين تلك الرحلات التاريخية وغيرها.

ومن أهم الدراسات في أدب الرحلة العربي القديم نجد كتاب أدب الرحلة في التراث العربي لفؤاد قنديل، وكذا الرحلة في الأدب العربي لناصر عبد الرزاق الموافي، أيضا نجد تاريخ الأدب الجغرافي العربي لإغناطيوس كراتشكوفسكي والملاحظ عن هذه الدراسات أنها اهتمت بالجانب التاريخي لأدب الرحلات، ومن الدراسات أيضا من اهتم بالجانب الأنثربولوجي كذلك.

وفيما يتعلق بالإشكاليات المحورية لهذا الموضوع فإنها تتلخص فيما يلي:

- كيف تجلت صورة البحر في كل من رحلات المسعودي، البكري والغرناطي؟

وينبثق عن هذه الإشكالية إشكالات فرعية هي:

- ما مفهوم الصورة في الأدب المقارن، وما هي أهم العناصر التي تتكون منها؟

- كيف كانت نظرة كل من المسعودي والبكري والغرناطي للبحر؟

- وما هي أهم المصادر التي اعتمدوها في تشكيلهم لهذه الصورة؟

- وما هي أهم العناصر المشكلة لصورة البحر في هذه الرحلات؟

أما بالنسبة للمنهج المتبع في هذه الدراسة فهو يقوم على دراسة نصوص الرحلات وتحليلها مستفيدا من مناهج نقدية متعددة، فقد اعتمدنا على المنهج التاريخي في الكشف عن نشاط الرحلة وأسبابها، كما اعتمدنا على آليتي التحليل والوصف في دراستنا لصورة البحر ونظرة الرحالة والعرب جميعا له، كما أن للصوراتية علاقة كبيرة بالموضوعاتية لذلك فقد اعتمدنا على المنهج الموضوعي كذلك.

وقد اقتضت هذه الدراسة خطة منهجية لهذا الموضوع تتكون من مقدمة وفصلين وخاتمة.

تناولنا في المقدمة أسباب اختيارنا للموضوع والأهداف التي تسعى هذه الدراسة إلى تحقيقها.

ثم تلاها الفصل النظري المعنون بـ "مقاربة نظرية لمصطلحات الصورة والآخر" وتندرج تحته مجموعة من العناوين الفرعية (نصوص البحر في الرحلات العربية القديمة، تعريف الصورة، المصادر المشكلة للصورة، عناصر تشكيل الصورة، حالات فهم الآخر وقراءاته).

في حين جاء الفصل الثاني تطبيقيا تحت عنوان: "صورة البحر في رحلات المسعودي، البكر، الغرناطي"، وتندرج تحته هو الآخر مجموعة من العناوين الفرعية (صورة البحر في رحلة مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي، صورة البحر في رحلة المسالك والممالك للبكري، صورة البحر في رحلة تحفة الألباب ونخبة الإعجاب للغرناطي).

تلي كل هذا خاتمة تضمنت أهم النتائج المتوصل إليها من خلال الدراسة.

وقد اعتمدنا في إنجازنا لهذه الدراسة على مجموعة من المصادر منها: رحلة مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي، وكذا رحلة تحفة الألباب ونخبة الإعجاب للغرناطي، إضافة إلى العديد من المراجع المهمة منها: كتاب أدب الرحلة في التراث العربي لفؤاد قنديل، وكذا كتاب تاريخ الأدب الجغرافي العربي لأغناطيوس كراتشكوفسكي، وكتاب معجم البلدان لياقوت الحموي، وغيرها من المراجع.

ولم يخل بحثنا هذا من بعض الصعوبات منها ضيق الوقت، حيث لم نستطع الإلمام بالموضوع من كافة جوانبه، فهو موضوع واسع ويحمل في طياته العديد من المضامين.

ودراستنا هذه هي مجرد نقطة في بحر واسع، فكما سبق وقلنا هذا الموضوع واسع وشيق وهو يحتاج إلى الإهتمام الدقيق به، والعديد ومن الدراسات حوله لكي تتجلى جميع جوانبه ومضامينه.

وأخيرا نتقدم بالشكر الخالص إلى الأستاذ المشرف "رؤوف قماش" الذي أعاننا بملاحظاته وتوجيهاته فكان لنا نعم المشرف والله الموفق.

الفصل الأول

مقاربة نظرية لمصطلحات

الصورة والآخر

المبحث الأول: نصوص البحر في الرحلات العربية القديمة

المطلب الأول: نصوص المسعودي حول البحر

المطلب الثاني: نصوص ابن حوقل حول البحر

المطلب الثالث: نصوص البكري حول البحر

المطلب الرابع: نصوص الغرناطي حول البحر

المطلب الخامس: نصوص أبو القاسم الزياني حول البحر

المبحث الثاني: الصورة في الأدب المقارن

المطلب الأول: تعريف الصورة

المطلب الثاني: مفهوم الصورولوجيا

المطلب الثالث: مصادر الصورة

المطلب الرابع: عناصر تكوين الصورة الأدبية الآخر

المطلب الخامس: حالات فهم الآخر وقراءته

المبحث الأول: نصوص البحر في الرحلات العربية القديمة

المطلب الأول: نصوص المسعودي حول البحر

1- المسعودي (ت 346 هـ/ 957 م):

"هو علي بن الحسين بن علي، أبو الحسن المسعودي، من ذرية عبد الله بن مسعود، مؤرخ، رحالة بحاتة، من أهل بغداد، أقام بمصر وتوفي فيها، من تصانيفه: مروج الذهب ومعادن الجوهر، و" أخبار الزمان ومن آباده الحدثان"، و"التنبيه والإشراف" و:أخبار الخوارج" و"ذخائر العلوم وما كان في سالف الدهور" و"الرسائل" و"الاستذكار بما مر من سالف الأعمار"، و"أخبار الأمم من العرب والعجم"...[1] وغيرها من المؤلفات الأخرى.

"رحل في طلب العلم إلى أقصى البلاد، فطاف فارس وكرمان سنة 309 هـ حتى استقر في اصطخر، وفي السنة التالية قصد الهند إلى ملتان* والمنصورة ثم عطف إلى صيمور** فسرنديب*** "سيلان" وهناك ركب البحر إلى بلد الصين وطاف البحر الهندي إلى مدغشقر وعاد إلى عمان، ورحل رحلة أخرى سنة 314 هـ إلى ما وراء

---

[1] خير الدين الزركلي: الأعلام، ج4، ط15، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 2002، ص277.

* ملتان: هي مدينة من نواحي الهند قرب غزنة أهلها مسلمون مند القدم، ياقوت الحموي: معجم البلدان، تح: عبد العزيز الجندي، ج5، دط، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د ت، ص 219.

** صيمور: بلد من بلاد الهند ملاصقة للسند قرب الديبل، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج3، د ط، دار صادر، بيروت، لبنان، دت، ص440.

*** سرنديب: هي جزيرة عظيمة في بحر هركند بأقصى بلاد الهند، ياقوت الحموي: معجم البلدان ،ج3، ص216.

أذربيجان وجرجان ثم إلى الشام وفلسطين وفي سنة 333 هـ جاء انطاكية والثغور الشامية إلى دمشق واستقر أخيرا بمصر، ونزل الفسطاط سنة 345 هـ، وتوفي في السنة التالية"[1].

ويعتبر المسعودي من أشهر رحالة القرن الرابع الهجري.

"سماه بعض المستشرقين " هيردوت* العرب"، كما أطلق سارتون** اسمه على النصف الأول من القرن الرابع هجري، إذ سماه عصر المسعودي"[2]، وكما سبق وأشرنا أن للمسعودي العديد من المؤلفات، غير أنها لم تصل إلينا كلها وذلك بسبب ضياعها، ومن أهم وأشهر مؤلفاته التي وصلتنا كتاب "مروج الذهب ومعادن الجوهر" الذي كتب عام 332 هـ/ 944 م، وأضاف إليه المسعودي عام 345هـ/ 956م"[3] وهذا الكتاب في قسمين "أولهما وصف فيه الخليفة وروى قصص الأنبياء باختصار، ثم انتقل إلى وصف الأرض والبحار والعجائب والغرائب وتاريخ الأمم القديمة وما كان لها من الأديان والعلماء والمذاهب، وعرض الأيام والشهور والتقاويم وكل ما يتعلق بذلك من جزيئات وكليات، وخص القسم الثاني بتاريخ الإسلام من أواخر عهد الراشدين إلى أوائل خلافة المطيع لله العباسي" [4].

---

[1] جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، ج2، د ط، دار الهلال، د ب، د ت، ص316.

*هيرودوت: مؤرخ يوناني قام برحلات متعددة إلى أسقاع العالم، يعرف بأبي التاريخ، منير البعلبكي: معجم أعظم المورد، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1992، ص448 .

** سارتون: عالم أمريكي يعتبر احد أعظم مؤرخي العلم في عصره، منير البعلبكي، معجم أعلام المورد، ص229.

[2] فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، ط2، مكتبة الدار العربية للكتاب، مصر،2002 ، ص211.

[3] ناصر عبد الرزاق الموافي: الرحلة في الأدب العربي "حتى نهاية القرن الرابع الجري"، ط1، مكتبة الوفاء، مصر، 1995، ص142.

[4] نقولا زيادة: الجغرافية والرحلات عند العرب، د ط، الشركة العالمية للكتاب، دار الكتاب اللبناني، لبنان، 1987، ص154.

وما دعا المسعودي إلى تأليف هذا الكتاب –مروج الذهب ومعادن الجوهر– هو تلخيص واختصار للمؤلفين الذين سبق له ووضعها وهما "أخبار الزمان" والكتاب الأوسط بسبب ضخامتهما وصعوبة الإطلاع عليهما، وقد تحدث فيه حول شكل الأرض وبحارها وكذا مدنها وغرائبها وعجائبها، كما تحدث عن أخبار الملوك السابقين لإضافة إلى العديد من الموضوعات الأخرى يقول المسعودي في هذا الأمر، "وكان ما دعاني إلى تأليف كتابي هذا في التاريخ، وأخبار العالم، وما مضى في أكناف الزمان من أخبار الأنبياء والملوم وسيرها والأمم ومساكنها محبة احتذاء الشاكلة التي قصدها العلماء، وقفاها الحكماء، وأن يبقى للعالم ذكرا محمودا، وعلما منظوما عتيدا فإن وجدنا مصنفي الكتب في ذلك مجيدا ومقصرا، ومسهبا ومختصرا...".[1]

كما اعتمد المسعودي في تأليفه لكتابه هذا على ما عاينه وشاهده في رحلاته وكذا على مؤلفات من سبقه من أدباء عصره، يقول المسعودي في هذا الشأن في مقدمة كتابه: "على أننا نعتذر من تقصير إن كان، ونتنصل من إغفال إن عرض، لما قد شاب خواطرنا، وغمر قلوبنا، من تقاذف الأسفار، وقطع القفار، تارة على متن البحر، وتارة على ظهر البر، مستعملين بدائع الأمم بالمشاهدة، عارفين خواص الأقاليم بالمعاينة، كقطعنا بلاد السند والزنج والصنف والصين والزابج..."[2]

[1] المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج1، ط1، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 2005، ص11.

[2] المصدر نفسه، ص10.

ويقول متحدثا في الشأن نفسه: "...صنفنا كتابنا من ضروب المقالات وأنواع الديانات، ككتاب "الإبانة عن أصول الديانة"، وكتاب "المقالات في أصول الديانات"، وكتاب "سر الحياة"، وكتاب "نظم الأدلة في أصول الملة" ... وكتاب الصفوة في الإمامة"..."[1]

2- النصوص:

ابتدأ المسعودي رحلته ببلاد فارس وكرمان ثم استقر في اصطخر، ليرتحل بعدها إلى الهند، واتجه بعدها إلى صيمور وسيلان، ليركب البحر من هناك إلى بلاد الصين وطاف البحر الهندي ليعود بعدها إلى عمان، وقد تحدث المسعودي في كتابه عن البحار التي ركبها بشكل مفصل في الجزء الأول، حيث افتتح الحديث عنها بشكل البحار وقد ذهب إلى أن شكل البحر مستدير، كما تحدث عن أخبار انتقال البحار وأنها تتحرك من أماكنها وليست ساكنة، وقد أفرد لحديثه هذا حوالي صفحة ونصف، ونجده يقول في هذا الصدد: "وقد تنوزع في شكل البحار، فذهب الأكثر من الفلاسفة المتقدمين من الهند وحكماء اليونانيون –إلا من خالفهم وذهب إلى قول الشرعيين- أن البحر مستدير على مواضع الأرض..."[2]

ويقول في موضع آخر حول أخبار انتقال البحار: "ذكر صاحب المنطق أن البحار تنتقل على مرور السنين وطويل الدهر، حتى تصير في مواضع مختلفة، وأن جملة البحار متحركة إلا أن تلك الحركة إذا أضيفت إلى جملة

---

[1] المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ص10.

[2] المصدر نفسه، 73.

مياهها وسعة سطوحها وبعد قعورها صارت كأنها ساكنة وليست مواضع الأرض الرطبة أبدا رطبة، ولا مواضع الأرض اليابسة أبدا اليابسة، لكنها تتغير وتستحيل..."[1]

ثم بعد ذلك نجده انتقل للحديث عن البحر الحبشي [البحر الأحمر]، فذكر حدوده ومواقع خلجانه وطولها، كما تحدث عن أنواع السمك الموجودة فيه، ليعود بعد ذلك للحديث عن تشعب مياه هذا البحر وخلجانه، وقد خص المسعودي لحديثه عن مجمل أخبار هذا البحر حوالي خمس صفحات من كتابه، يقول المسعودي: "قدروا بحر الهند، وهو الحبشي، وأنه يمتد طوله من المغرب إلى المشرق من أقصى الحبش إلى أقصى الهند والصين، ثمانية آلاف ميل، وعرضه ألفان وسبعمائة ميل، وعرضه في موضع آخر ألف وتسعمائة ميل، وقد يتقارب في قلة العرض في موضع من موضع، ويكثر كذلك، وقد قيل في طوله وعرضه غير ما وصفنا من الكثرة..."[2] .

ويقول في موضع آخر: "...وفيه السمك المعروف بافال طول السمكة نحو من أربعمائة ذراع إلى خمسمائة ذراع بالذراع العمرية، وهي ذراع ذلك البحر، والأغلب من هذا السمك طول مائة ذراع، وربما يهز البحر فيظهر شيئا من جناحه، فيكون كالقلع العظيم..."[3] هذا بالنسبة للسمك الذي يتواجد به، أما بالنسبة لتشعب مياهه وخلجانه نجده يقول: "فلنرجع الآلاف إلى ذكر تشعب مياه هذا البحر وخلجانه، ودخوله في البر ودخول البر

---

[1] المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ص73.

[2] المصدر نفسه، ص84.

[3] المصدر نفسه، ص85.

فيه، فنقول: إن خليجا آخر يمتد من هذا البحر الحبشي فينتهي إلى مدينة القلزم من أعمال مصر، وبينها وبين فسطاطا مصر ثلاثة أيام..."[1]

بعدها انتقل للحديث عن تنازع الناس في المد والجزر، فقام بتعريف المد والجزر بعدها أورد أقوالا مختلفة حول المد والجزر في البحار، ثم تحدث عن المد والجزر في البحر الحبشي، ونجده أفرد لحديثه هذا حوالي أربع صفحات.

يقول المسعودي في هذا الصدد: "المد: مضيء وسيحته وسنن جريته، والجزر: رجوع الماء على ضد سنن مضيه وانكشاف ما مضى عليه في هيجه، وذلك كبحر الحبشي الذي هو الصيني والهندي وبحر البصرة وفارس... وقد تنازع الناس في علة المد والجزر، فمنهم من ذهب إلى ان ذلك من القمر لأنه مجانس للماء، وهو يسخنه، فينبسط، وشبهوا ذلك بالنار إذا أسخنت ما في القدر وأغلته، وإن الماء يكون فيها على قدر النصف أو الثلثين، فإذا غلا الماء انبسط في القدر وارتفع وتدافع حتى يفور فتتضاعف كميته في الحس...".[2]

بعد ذلك نجده ينتقل للحديث عن بحر الروم [البحر الأبيض المتوسط] إذ تحدث عن حدوده وطوله وعرضه، إضافة إلى خلجانه وبحوره، يقول المسعودي: "أما بحر الروم وطرسوس وأدنة والمصيصة وأنطاكية واللادقية وطرابلس وصيداء وصور وغير ذلك من ساحل الشام ومصر والإسكندرية وساحل المغرب، فذكر جماعة من أصحاب الزيجات في كتبهم، منهم محمد بن جابر النسائي وغيره، أن طوله خمسة آلاف ميل، وعرضه مختلف،

---

[1] المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ص86 .

[2] المصدر نفسه، ص86.

فمنه ثمانمائة ميل، ومنع سبعمائة ميل، ومنه ستمائة ميل، وأقل من ذلك..."[1] ويقول أيضا في حديثه عن هذا البحر: "وقد ذهب قوم إلى أن هذا البحر أصل ماء سائر البحار، وله أخبار عجيبة قد أتينا على ذكرها في كتابنا "أخبار الزمان" في أخبار من غرر وخاطر بنفسه في ركوبه، ومن نجا منهم، ومن تلف، ومن شاهدوا منه، وما رأوا، وأن منهم رجلا من أهل الأندلس، ركب بهم مراكب استعدها في هذا البحر المحيط،... وبين موضع الأحجار مسافة [طويلة] في طول مصب هذا الخليج وجريانه..."[2] ، هذا بعض ما قاله المسعودي في بحر الروم.

لنجده بعد ذلك ينتقل للحديث عن بحر نيطش [البحر الأسود] وبحر مانطش وهو متصل ببحر نيطش، كما تحدث عن خليج القسنطنطينية، ونجده تحدث عن حدودها وطولها، ويقول المسعودي في حديثه عنها: "فأما بحر نيطش فإنه يمد من بلاد لاذقة إلى القسطنطينية [وطوله ألف مائة ميل، وعرضه في الأصل ثلاثمائة ميل،...ويكون مقدار جريانه على وجه الأرض نحو ثلاثمائة فرسخ عمائد متصلة لولد يافث"[3] هذا بالنسبة لحديثه عن حدود بحر نيطش وطوله أما بخصوص بحر مانطش نجده يقول: "ويسير بحر مانطش-فيما زعم قوم من أهل العناية بهذا الشأن- حتى يصب في بحر نيطش، وهو بحر عظيم فيه أنواع من الأحجار والحشائش...ويجعل طوله ثلاثمائة ميل، عرضه مائة ميل"[4]، ونجده قد خصص لحديثه عنها ثلاث صفحات لنجده بعدها ينتقل للحديث عن بحر الباب الأبواب والخزر وجرجان فتحدث عن شكله وعن البلدان الواقعة على شواطئه، كما تحدث عن خلجانه، بعد ذلك نجده يتحدث عن عدد البحار، ليتنقل بعدها للحديث عن مبادئ تكوين البحار

---

[1] المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ص89.

[2] المصدر نفسه، ص93.

[3] المرجع نفسه، ص 93-94.

[4] المصدر نفسه، ص95.

وقد أورد أقوالا وآراء عدة حول تكون البحار فقد نجد أن المسعودي أفرد لحديثه هذا سبع صفحات، يقول في حديثه عن بحر باب الأبواب* وبحر الخزر** : "نفسه فأما بحر الأعاجم الذي عليه دورها ومساكنها فهو معمور بالناس من جميع جهاته وهو المعروف ببحر الباب والأبواب والخزر والجيل [والديلم] وجرجان وطبرستان وعليه أنواع من الترك، وينتهي في إحدى جهاته نحو بلاد خوارزم، وطوله ثمانمائة ميل..."[1]

هذا بعض حديثه عن بحر الأعاجم، أما فيما يخص حديثه عن عدد البحار فنجده يقول: "فهذه جمل البحار، وعند أكثر الناس أنها أربعة في المعمور من الأرض، ومنهم من يعدها خمسة، ومنهم من يعدها ستة، ومنهم من يرى أنها سبعة منفصلة غير متصلة، وعلى أنها ستة فأولها البحر الحبشي، ثم الرومي، ثم نيطش، ثم مانطش، ثم الخزري، ثم أوقيانوس الذي لا يعلم أكثر نهايته، وهو الأخضر المظلم المحيط، وبحر نيطش متصل ببحر ماطش ، ومنه خليج القسطنطينية الذي يصب في بحر الروم ويتصل به..."[2]

ونجده يقول بخصوص تكوين البحار: "وأما ما تنازع فيه المتقدمون من أوائل اليونانيين والحكماء المتقدمين في مبادئ كون البحار وعللها فقد أتينا على مبسوطة وكتابنا "أخبار الزمان" في الفن الثاني من جملة الثلاثين

---

* باب الأبواب: هي مدينة ربما أصاب ماء البحر حائطها، وهي وسط هنا مرسى للسفن...وباب الأبواب كلي بحر طبرستان، وهو بحر الخزر وهي مدينة تكون أكبر من أردبيل، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج1، د ط، دار الصادر بيروت، لبنان، د ت، ص 303.

** بحر الخزر: هو بحر طبرستان وجرجان وآبكسون كلا واحد، وهو بحر واسع عظيم لا انفصال له بغيره، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج1، ص342.

[1] المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ص95.

[2] المصدر نفسه، ص96.

فنا...وذهبت طائفة منهم إلى أن البحر بقية من الرطوبة الأولى التي جفف أكثرها جوهر النار، وما بقي منها واستحال لاحتراقه..."[1] فهو هنا يذكر جميع الأقوال التي قالها المتقدمون حول تكون البحار.

ويتحدث المسعودي عن أخبار البحار وما فيها وما حولها من العجائب والأمم، فنجده يتحدث عن بحر فارس [الخليج العربي] وبحر الهند وهدوئها وفصل في ذلك، لينتقل بعدها للحديث عن اللؤلؤ وأي البحار يتواجد فيه وكيفية الغوص للبحث عنه، بعدها تحدث عن العنبر حيث ذكر مكان تواجده وأي البحار تزخر به من بحار البحر الحبشي [البحر الأحمر] وشكله وكيفية التقاطه، بعدها تحدث عن بحر الكلة أو الكلا هبار، ثم بحر كرندج فبحر الصنف، وبحر الصين وقد تحدث عن أخبار هذه البحار وحيواناتها ونجد المسعودي خصص لحديثه هذا سبع صفحات، يقول في حديثه عن هدوء بحر الهند الصين: "فنقول: إن بحر الصين والهند وفارس واليمن متصلة مياهها غير منفصلة، على ما ذكرنا، إلا أن هيجانها وركودها مختلف باختلاف مهاب رياحها وآثار ثورانها وغير ذلك فبحر فارس تكثر أمواجه، ويصعب ركوبه، عند لين بحر الهند واستقامة ركوبه وقلة أمواجه ويلين بحر فارس، وتقل أمواجه ويسهل ركوبه، عند ارتجاج بحر الهند".[2]

هذا بعض حديثه عن هدوء وحال كل من بحر الهند والصين وفارس، ونجده يقول في حديثه عن الغوص عن اللؤلؤ: "والغوص على اللؤلؤ في بحر فارس، وإنما يكون في أول نيسان إلى آخر أيلول، وما عدا ذلك في شهور السنة فلا غوص فيها، وقد أتينا فيما سلف من كتبنا عن سائر مواضع الغوص في هذا البحر، إذ كان ما عداه من

---

[1] المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ص96.

[2] المصدر نفسه: ص99-100.

البحار لا لؤلؤ فيه، وهو خاص بالبحر الحبشي من بلاد خارك وقطر وعمان وسرنديب وغير ذلك من هذا البحر"[1].

أما بالنسبة لحديثه عن العنبر فيقول: "وذلك أن العنبر أكثره يقع إلى بلاد الزنج وساحل الشحر من أرض العرب، وأهل الشحر أناس من قضاعة وغيرهم من العرب، وهم مهرة، ولفهم بخلاف لغة العرب، وذلك أنهم يجعلون الشين بدلا من الكاف...ولهم نجب يركبونها بالليل تعرف بالنجب المهرية تشبه في السرعة بالنجب البجاوية،...ويسيرون عليها على ساحل بحرهم، فإذا أحست هذه بالعنبر قد قذفه البحر بركت عليه..."[2]

ونجده يقول في حديثه عن بحر الصين: "ثم البحر السابع وهو بحر الصين على ما ركبناه آنفا، ويعرف ببحر صنجي وهو بحر خبيث الموج والخب، وتفسير الخب الشدة العظيمة في البحر، وإنما نخبر عن عبارة أهل البحر وما يستعملونه في خطابهم ففيه جبال كثيرة لابد من للمراكب من النفوذ بينها، وذلك أن البحر إذا عظم خبه وكثر موجه ظهرت أشخاص سود طول الواحد منهم الخمسة أشبار أو الأربعة كأنهم أولاد الأحابيش الصغار، شكلا واحدا، وقدرا واحدا..."[3] هذا بعض ما قاله عن بحر الصين وعجائبه وغرائبه، وإجمالي حديث المسعودي عن البحار في رحلته حوالي سبع وعشرون صفحة.

* خارك: هي جزيرة في وسط البحر الفارسي، وهي جبل كل في وسط البحر، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج2، ص337.

[1] المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ص115.

[2] المصدر نفسه، ص116.

[3] المصدر نفسه: ص117.

المطلب الثاني: نصوص ابن حوقل حول البحر

1- ابن حوقل:

من أبرز جغرافي ورحالة القرن 4هـ، لا يوجد تاريخ محدد بشان مولده، "أصوله من مدينة نصيبين بالجزيرة [جزيرة الشام]،...بدأ تجواله من بغداد في رمضان عام 331هـ/943م متخذا التجارة مهنة له، لكنه ربما كان في الحقيقة داعيا وسياسيا، وقد انتظم تجواله أفريقيا الشمالية والأندلس وزار نابلي وباليرمو وعرف عن كتب العراق وإيران وجزءا من الهند، وقد ظهر الاهتمام بالجغرافيا لديه مبكرا، زمما حفزه على ذلك مقابلته للإصطفري عام 340هـ/551-952م".[1]

كان مولعا بالجغرافيا كثيرا، "فقرأ ما سبقه وعاصره من كتب جغرافية فصمم على أن يضع فيه كتابا لا يأخذ من أفواه الناس ولا مما قرأه، وإنما يأخذه عن عينه ومشاهداته في العالم الإسلامي، فطاف بهذا العالم ثلاثين سنة، ثم وضع كتابه".[2] المسالك والممالك (صورة الأرض).

ونحن نفهم من هنا أن ابن حوقل في تأليفه لكتابه اعتمد في أغلب الأحيان على ما شاهده وعاينه بنفسه ولم يعتمد فقط على ما سمع من الناس عن أخبار ولا على ما اطلع من كتب.

---

[1] أغناطيوس كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، نقل: صلاح الدين عثمان خاشم، مراجعة: ايغور بليايف، القسم 1، د ط، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، د ب، د ت، ص200.

[2] شوقي ضيف: الرحلات، ط4، دار المعارف، القاهرة، مصر، د ت، ص12.

"رفع ابن حوقل المسودة الأولى من مصنفه صورة للأرض إلى سيد الدولة الحمداني (توفي عام 356هـ/967م، وترجع المسودة الثانية إلى حوالي عام 367هـ/977م".[1]

أما بالنسبة لطريقة تقسيمه لكتابه هذا فنجده: "يقسمه إلى قسمين القسم الأول، يضم المقدمة وصورة الأرض ثم يستعرض ملامح البلاد التي زارها مبتدئا بذكر العرب وبحر فارس والمغرب والأندلس وصقلية، فمصر والشام، وبحر الشام ثم الجزيرة والعراق وإيران والجبال والديلم وطبرستان وبحر الخزر وسجستان وما وراء النصر وأخيرا الخاتمة".[2]

وما دعا ابن حوقل لتأليف كتابه هذا هو وضع مؤلف في الجغرافيا ليصف فيه البلدان والطرق بينها بطريقة مفصلة وأنه لم يقتنع بالكتب التي سبق وضعها في هذا الصدد لهذا قام بوضع كتابه صورة للأرض يقول في هذا الشأن في مقدمة كتابه: "وكان مما دفعني على تأليفه وحثني على تصنيفه، وجذبني إلى رسمه أني لم أزل في حال الصفوة شغفا بقراءة كتب المسالك متطلعا إلى كيفية البين بين الممالك في السير والحقائق، وتباينهم في المذاهب والطرائق، وكمية وقوع ذلك في الهمم والرسوم، والمعارف والعلوم، والخصوص والعموم، وترعرعت فقرات الكتب الجليلة المعروفة والتواليف الشريفة الموصوفة، فلم أقرأ في المسالك كتابا مقنعا، وما رأيت فيها رسما متبعا، فدعاني ذلك إلى تأليف هذا الكتاب...".[3]

---

[1] أغناطيوس كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص201.

[2] فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، ص231-232.

[3] أبو القاسم بن حوقل النضيب: صورة الأرض، د ط، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1992، ص10.

2- النصوص:

يذكر ابن حوقل في مقدمة كتابه أنه بدأ رحلته من مدينة السلام ببغداد يوم الخميس السابع من شهر رمضان سنة 331هـ واتجه إلى مصر فبحر الروم والمغرب ونزل بالأندلس، وأقام في صقلية وزار نابلي وباليرمو ثم اتجه إلى الجزيرة العربية ومنها إلى فارس وكرمان والسند وأرمينية وأدربيجان وإيران والجبال ثم الديلم وطبرستان وبحر الخزر وخراسان وسبجستان، وكانت آخر بلاد زارها هي ما وراء النهر، وقد تحدث ابن حوقل عن البحار بشكل مفصل في كلا القسمين، فنجده تحدث في القسم الأول على كل من بحر فارس وبحر الروم، في حين تحدث عن بحر الخزر في القسم الثاني من كتابه.

افتتح الحديث عن البحار ببحر فارس إذ ابتدأ الحديث فيه عم المدن والجزائر والجزر التي تحيط به وتقع على شواطئه، كما تحدث عن المعادن والثروات التي تزخر بها تلك المدن والجزر، لنجده بعد ذلك يورد توضيح كما يوجد في صورة بحر فارس من الأسماك بعدها تطرق ابن حوقل إلى وصف ما يحيط ببحر فارس وما في ضفافه وصفا دقيقا، فذكر البحار المرتبطة به والجبال الواقعة على ضفافه وفصل في طبيعة أمواج هذه البحار وصعوبة ركوبها وكذا نجده ذكر طولها والثروات التي تستخرج منها، كما تحدث عن المد والجزر في شواطئه، لنجده ينتقل لوصف ما على سواحله من مدن وصف جامع دقيق، إذ نجده يصف طبيعة مناخها وبنيانها وكذا يصف السكان المقيمين بها من حيث عقائدهم الدينية وغيرها، كما تحدث أيضا عن ملوك هذه المدن، وقد خصص ابن حوقل لحديثه عن بحر فارس بحاره وجزائره ستة عشر صفحة.

يقول ابن حوقل في حديثه عن حدوده والبلاد التي تقع على شواطئه: "والذي يجب أن يذكر بعد ديار العرب بحر فارس، لأنه يشتمل على أكثر حدودها، وتتصل ديار العرب به وبكثير من بلدان الإسلام وتعتوره، ثم ذكر جوامع مما يشتمل عليه هذا البحر، وابتدأ بالقلزم ساحله مما يلي المشرق فإنه ينتهي إلى أيلة، ثم يطوف

بحدوده ديار العرب التي ذكرتها وأثبتها قبل هذا من هنا على عبادان، ثم يقطع عرض دجلة وينتهي على الساحل إلى مهروبان ثم إلى جنابه، ثم يمر على سيف فارس إلى سيراف ثم يمتد إلى سواحل هرموز من وراء كرمان إلى الديبل...". [1]

هذا بعض حديثه عن حدوده، وفي حديثه عن البحار المرتبطة به نجده يقول: "فأما ما كان عليه من القلزم* إلى أن يحاذي بطن اليمن، فإنه يسمى بحر القلزم ومقدار نحو ثلاثين مرحلة طولا، وعرضه أوسع ما يكون عبر ثلاث ليال، ثم لا يزال يضيف حتى يرى في بعض جنباته الجانب الآخر حتى ينتهي إلى القلزم ثم يدور على الجانب الآخر من بحر القلزم [البحر الأحمر]، وهو وإن كان فيه بحر ذا أودية ففيه جبال كثيرة قد علا الماء عليها وطرق السفن بها معروفة..."[2] .

نجده تحدث أيضا عن المدن الواقعة على سواحله كما سبق وذكرنا فيقول مثلا: "فأما القلزم فمدينة على شفير البحر ونحوه ومنتهى هذا البحر إليها، وهي في عقم هذا البحر من آخر لسانه، وليس لها زرع ولا شجر ولا ماء، وماؤهم يحمل إليهم عن آبار بعيدة ومياه منها على نأي وهي تامة العمارة بها فرضة مصر والشام...".[3] كان هذا بعض حديثه عن مدينة القلزم.

---

[1] ابن حوقل: صورة الأرض، ص48.

* قلزم: بلدة على ساحل بحر اليمن قرب آيلة والطور ومدين وإلى هذه المدينة ينسب هذا البحر موضعها أقرب وضع إلى البحر الغريب لأن بينها وبين عزما أربعة أيام، والقلزم على بحر الهند، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج64، ص387.

[2] ابن حوقل: صورة الأرض، ص51.

[3] المصدر نفسه، ص53.

إضافة لحديثه عن بحر فارس نجده تحدث عن بحر آخر في كتابه وهو بحر الروم [البحر الأبيض المتوسط]، ونجده ابتدأ حديثه عنه بحدوده والجزائر المحيطة به وكذا خلجانه وسواحله، ليورد بعدها صورة لشكل بحر الروم وما يحيط به من خلجان وسواحل ومدن وجزر، لنجده بعدها يورد أقوالا عن وصف هذه المدن والطرق الرابطة بينها وطول مسافة هذه الطرق، وبعد حديثه عن تلك المدن نجده ينتقل للحديث عن الجبال الواقفة على سواحله، وقد أفرد ابن حوقل لحديثه عن بحر الروم ثلاث عشرة صفحة من كتابه يقول في حديثه عن حدوده: "ومخرجه بين أرض الأندلس وأرض طنجة وسبتة، وهذه الناحية محاذية من الأندلس بجزيرة جبل طارق واشبيلية، وعرض هذا المخرج بهذا المكان المعروف باشبرتال، وهو جبل عال ويمتد جنوبا إلى سلة ويحاذيه من ا العدوة الأندلسية جبل الأغر ثم لا يزال يتسع ويعرض ويمتد على سواحل المغرب ومما يلي شرقي هذا البحر حتى ينتهي إلى أقاصي أرض مصر ممتدا على أرضها إلى الشام متصلا عليها..."."[1] وفي حديثه عن المدن التي تقع على سواحله والطرق الرابطة بينها والمسافة بينها يقول: "ومما أعلمه أنا في حين غزونا من ميافرقين* أنا نزلنا على حصن الهتاخ**، فكانت إلى مرحلة ستة فراسخ*** ومنه إلى حصن ذي القرنين ... ومنه إلى مدينة الأرديس وكانت إذ ذاك للمسلمين سبعة

---

[1] ابن حوقل: صورة الأرض، ص174.

* ميافرقين: أشهر مدينة بديار بكر، قالوا: سميت بميا بنت لأنها أول من بناها، وفارقين هو الخلاف بالفارسية يقال له باجين، لأنها كانت أحسنت خندقها فسميت بذلك...قال بطليوس: مدينة ميافارقين طولها أربع وسبعون درجة وأربعون دقيقة، وعرضها سبع وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج 5، ص273.

** الهتاخ: قلعة حصينة في ديار بكر قرب ميافرقين، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج5، ص451.

*** الفرسخ: مقداره ثلاثة أميال أو ستة، وسمي بطلك لأن صاحبه إذا مشى قعد واستراح من ذلك كأنه سكن، ابن منظور: لسان العرب، ج3، د ط، دار صادر، بيروت، لبنان، د ت، ص44.

فراسخ، ومنها إلى ضيعة القسي ثلاثة فراسخ، ومنها إلى هباب مدينة خمسة فراسخ ومن هباب إلى قرية إنكليس ستة فراسخ...".[1]

وهذا فيما يخص حديثه عن المدن التي تقع على سواحله والمسافة بينهما، كما نجد يقول في حديثه عن الجبال الواقعة على سواحله: "وعلى هذا البحر وفي بلد الروم جبال لا تعد لكثرتها ومنها جبال إقليمية، وإقليمية مدينة كانت للروم قديما التي عليها المسلمون وكان بعض أبواب طرسوس إقليمية وكانت بعيدة من شط البحر بنحو مرحلة نزلت لمكان معروف بالأسس قرية على شط البحر..."[2]

وفي حديثه عن جزائر هذا البحر نجده يقول: "وفي هذا البحر جزائر صغار وكبار وجبال غامرة وعامرة للروم والمسلمين فأما المعمور بالإسلام والناس فصقلية، وفي أكبرها وأكثرها عدة وأشدها بأسا لمن حوته ناقلة المغرب، وهي ناحية قريبة من الإفرنجة وقد قدمت كثير من ذكرها وكان للمسلمين في هذا البحر غير جزيرة جليلة ونائية مشهورة نبيلة، فاستولى العدو عليها قبرص وإقريطس وكانتا جزيرتين كثيرتي الخير والتجارة..."[3]

هذا بعض ما قاله ابن حوقل في وصف بحر الروم وهو لم يكتفي بحديثه عن هاذين البحرين فقد تحدث عن بحر ثالث في القسم الثاني من كتابه وهو بحر من الجهات الأربع – شرقا وغربا شمالا وجنوبا- ليقدم بعدها توضيحا يوجد في صورة بحر الخزر التي قدمها من أسماء الأنهار المرتبطة به والجبال الواقعة على سواحله وكذا المدن الواقعة على شواطئه وكذا خلجانه وجزره، بعدها أورد صورة البحر التي قام بتوضيحها قبلا، ونجده يخص في حديثه

---

[1] ابن حوقل: صورة الأرض، ص179.

[2] المصدر نفسه، ص182-183.

[3] المصدر نفسه، ص184.

عن بحر الخزر طبيعته من حيث المد والجزر فيه، وكذا سواده، كما تحدث على شواطئه وسواحله ليست عامرة بالجزر والمدن على خلاف بحر فارس والروم، وأن جزر الواقعة على شواطئه ليست عامرة بالسكان على خلاف غيره، بعدها تحدث عن سكانه، كما نجده فصل طريق جريان نهر آتل* بعدها انتقل للحديث عن مدينة سمندر** وبرطاس***.

بعدها نجده ينتقل لوصف طبيعة سكان الخزر من الناحية الجسمانية، ليذهب بعدها ليفصل في طبيعة منطقة برطاس وسكانها، وختم حديثه بذكر المسافات بين الخزر ونواحيه، وقد خص ابن حوقل لحديثه عن هذا البحر حوالي احد عشرة صفحة، فنجده يقول في حديثه عن حدود هذا البحر: "وبحر الخزر فإن شرقيه بعض الديلم وطبرستان وجرجان وبعض المفازة التي بين جرجان وخوارزم، وغربيه الران وحدود السرير بلاد الخزر وبعض مفازة الغزية وشماليه مفازة الغزية بناحية سياه كويه، وجنوبيه الجيل والديلم وما إلى ذلك..."[1] هذا فيما يخص حديثه عما يحده من الجهات الأربع، لنجده بعدها يقدم توضيحا لما يوجد في صورة بحر الخزر من الأسماء كما

* آتل: اسم نهر عظيم شبيه بدجلة في بلاد الخزر، يمر ببلاد الروس والبلغار، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج1، ص87.

** سمندر: مدينة خلف باب الأبواب بثمانية أيام بأرض الخزر بناها أنو شرحان بن قباد كسرى، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج3، ص253.

*** برطاس: اسم لأمة لهم ولاية واسهة تعرف بهم، تنسب إليها الفراء البرطاسية وهم متخاصون للخزر وليس بينهما امة اخرى، وهم قوم مفترسون على وادي إيتل، وبرطاس: اسم الناحية والمدينة، وهم مسلمون، يوافقون الحمدي، معجم البلدان، ج1، ص389.

[1] ابن حوقل: صورة الأرض، ص327.

ذكرنا سابقا يقول: "قد رسم البحر على شكل دائرة في وسط الصورة ورسم من أعلاه جبل لاسم عنده وهو بين كلمتي كتابه بحر الخزر ، وكتب موازيا لساحل البحر الأعلى الغزية..."[1]

وفي حديثه عن انغلاق بحر الخزر وعدم اتصاله بغيره من البحار يقول: "وهذا البحر ليس له اتصال بشيء من البحار التي على وجه الأرض بطريق المادة والاختلاط إلا ما يدخل إليه من نهر الروس المعروف بآتل وهو متصل بشعبة تقضي منه إلى الخليج للخارج من ارض القسطنطينية إلى البحر المحيط ولو ان رجلا طاف بهذا البحر لرجع إلى مكانه الذي ابتدأ به لا يمنعه مانع ولا يقطعه قاطع..."[2]

وفي حديثه عن جزائره الخالية من السكان يقول: "... وليس فيه جزيرة مسكونة فيها عمارة كما في غير جزائر فيها سكان ومياه ومدن، والذي فيه من الجزائر فيها مياه وأشجار ولم يسكنها في الإسلام أحد منها جزيرة سياه كويه وهي كبيرة بها عيون وأشجار وغياض ودواب وحش، وإليها جزيرة جماه الكرو بالقرب من الباب وهي كبيرة أيضا فيها غياض وأشجار ومياه ويرتفع منها القوة..."[3] بعدها انتقل للحديث عن خلو شواطئه وسواحله من المدن العامرة بالسكان إلا في بعض الأماكن يقول: "وليس من أبسكون إلى الخزر عن اليمين على شط البحر قرية ولا مدينة سوى وضع من أبسكون على خمسين فرسخا منها يسمى دهستان* كالقرية فيها قوم قلة وفي مائهم

---

[1] ابن حوقل: صورة الأرض، ص327.

[2] المصدر نفسه، ص327-328.

[3] المصدر نفسه، ص329.

* دهستان: بلد مشهور قرب خوارزم وجرجان، بناها عبد الله ابن الطاهر في خلافة المهدي، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج2، ص492.

غور وماء البحر بهذه الناحية قصير القعر وهي كالدخلة في البحر فترسى فيها السفن في هيجان الريح والبحر ويقصد هذا الموضع خلق كثير من النواحي..."[1]

بعدها انتقل للحديث عن نهر آتل وتحدث عن المدن الواقعة على ضفافه حيث يقول: "وأما الخزر قاسم الإقليم وقصبته تسمى آتل، وآتل اسم النهر الذي يجري إليهم من الروس وبلغار ويفيض في بحر الخزر [وقيل منبع هذا النهر من الظلمات لا يعرف أحد أوله ولا وصل إلى منبعه]، والبلد قطعتان إحداهما غربي النهر المسمى اتل وهي أكبرهما، والأخرى شرقيه، والملك يسكن في الغربية منهما وتسمى خزران، والشرقية تسمى اتل ويسمى الملك بلسانهم باك..."[2]

وفي حديثه عن مدينة سمندر يقول: "وللخزر ناحية ولها مدينة تسمى سمندر وهي فيما بينها وبين باب الأبواب، وكانت بها بساتين كثيرة يقال أنها كانت تشتمل على نحو أربعين ألف كرم[!]، وسألت عنها بجرجان سنة ثمان وخمسين لقريب عهد بها فقال: وهناك كرم أربستان ماله على المساكين صدقة إن كان يقي هناك ورقة على الساق..."[3] ، وفي حديثه ووصفه لسكان الخزر نجده يقول: "وليس يشبه الخزر الترك إذ الخزر بأجمعهم سود الشعور وهم صنفان: صنف يسمون قراخزر وهم سمر يضربون لشدة السمرة إلى السواد كأنهم صنف من الهند،

---

[1] ابن حوقل: صورة الأرض، ص329.

[2] المصدر نفسه، ص330.

[3] المصدر نفسه، ص333.

وصنف بيض ظاهر والحسن والجمال، والذي يقع من رقيق الخزر فهم أهل الأوثان الذين يستجيرون بيع أولادهم واسترقاق بعضهم لبعض..."[1]

وفي حديثه عن المسافات بين الخزر ونواحيه نجده يقول: "... فمن يسكنون إلى بلاد الخزر نحو ثلاثة فرسخ أيضا،...ويقطع هذا البحر إذا طابت الريح عرضا من طربستان إلى باب الأبواب في أسبوع، وأما من أبسكون* إلى بلاد الخزر فغنه زائد على العرض...[2]، وإجمالي حديث ابن حوقل عن هذه البحار الثلاثة في مؤلفه صورة الأرض أربعون صفحة.

المطلب الثالث: نصوص البكري حول البحر

1- أبو عبيد البكري (405-487هـ) (1014-1094)

"هو عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب بن عمرو البكري المشهور خاصة بكنيته أبو عبيد ولد بلبلة** من عائلة عربية يرجع أصلها إلى قبيلة بكر وائل"[3]، ويعد البكري من أشهر الجغرافيين العرب والأندلسيين في القرن الخامس الجري "وهو أديب وناقد ومؤرخ وفقيه مشهور، كان حبا لكتب الأدب، وقد ترك العديد من

---

[1] المصدر نفسه، ص334.

* أبسكون: مدينة على ساحل بحر طبرستان، بينها وبين جرجان أربعة وعشرون فرسخا، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1، ص73.

[2] ابن حوقل: صورة الأرض، ص336-337.

** لبلة: قصبة كور بالأندلس كبيرة يتصل عملها بعمل أكشونية في شرق من أكشونية وغرب من قرطبة، بينها وبين قرطبة على طريق إشبيلية خمسة أيام أربعة وأربعون فرسخا، وهي برية وبحرية غزيرة الفضائل والثمر والشجر، ياقوت الحموي: معجم البلدان،ج4، ص11.

[3] أبو عبيد البكري: المسالك والممالك، تح: أدريان فان يوفن وأندري فيري، د ط، دار العرب الإسلامي، د ب، 1992، ص7.

المؤلفات في الأدب والدين، إضافة إلى مؤلفين في الجغرافيا هما المسالك والممالك، وعجم ما استعجم"[1] وهما مؤلفان في غاية الأهمية في الجغرافيا إذ اعتمد عليه العديد من الدارسون والجغرافيون الذين جاؤوا بعدد لاطلاعهم على البلدان.

"فرغ البكري من تأليفه لكتاب المسالك والممالك عام 460 غير أن النص لم يحفظ كاملا بالرغم من استمرار مخطوطاته بالظهور إلى الآونة الأخيرة".[2]

" وهو ينقسم إلى قسمين القسم الأول كان يحتوي مقدمة عامة أو تمهيدا، يعتبر اليوم ضائعا ويستهل هذا القسم بمقدمة تاريخية طويلة تبدأ بمبدأ الخلق وتتعرض لتاريخ الأنبياء من آدم إلى محمد صلى الله عليه وسلم، ويتعلق الفصل الموالي بالمعتقدات الدينية عند أهم مختلفة، ليبدأ بعدها القسم الجغرافي الحقيقي بفصول عديدة في الجغرافية العامة، أما القسم الثاني فيبدأ بوصف حافظ ياجوج وماجوج ورسلة سلام الترجمان".[3]

وقد اعتمد البكري في تأليفه لهذا الكتاب على مؤلفات من سبقه من الجغرافيين والرحالة فالمعروف عنه أنه لم يغادر الأندلس أبدا.

---

[1] فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، ص324.

[2] اغطاطيوس كراتشكوفسكس: تاريخ الادب الجغرافي العربي، ص275.

[3] البكري: المسالك والممالك، ص13-15.

2- النصوص:

تحدث البكري عن البحار في مؤلفه المسالك والممالك في القسم الأول من الكتاب، وقد استهل حديثه بالرغم من الذي قال به الفلاسفة حول إحاطة البحر الأعظم بالأرض ضمن جميع الجهات، وأن جميع البحار الأخرى مرتبطة به وتتفرع عنه، وأنها متصلة ببعضها البعض، ونجده بعدها يستذكر هذه البحار ومواقعها وطريق مرورها وكذا أشكالها وما يقع على سواحلها من مدن وجزائر، وذكر أسماء هذه البحار وقد أفرد البكري لحديثه هذا صفحتين يقول البكري في هذا الشأن: "رغم كثير من الفلاسفة وأهل العلم بالهندسة أن البحر الأعظم محيط بالأرض من جميع جهاتها لأسباب ذكروها ليس هذا موضع ذكرها وأن الشكل الذي ينسب إلى ... ".[1]

ويقول في ارتباط جميع البحار به: "وجميع بحار الأرض فروع من هذا البحر وهي متصلة الأجزاء ملتقية المياه وقد نقل بعض المؤرخين أن أحد ملوك الأرض أراد أن يعلم صحة ذلك فأنشأ سفنا ضخمة حصينة وشحنها بالرجال والأزواد والمال وأرسلها نحو المشرق والمغرب والشمال والجنوب، فأصابوا جميع أجزاء البحر يتصل بعضها ببعض وألفوها كلها تتشعب من البحر الأعظم المحيط".[2]

بعدها نجده ينتقل للحديث عن بحر الهند وهو نفسه البحر الحبشي وبحر الصين والسند والزنج وفارس، وقد ابتدأ حديثه عنه بحر الهند- يذكر طوله وعرضه ثم انتقل للحديث عن تقسيمه إلى ستة أبحر مختلطة ذكرها على التوالي وفصل الحديث فيها إذ تحدث عن مدنها وجزائرها، وعن أنواع الأطعمة التي يتناولها سكانها وكذا عن طريقة عيشهم، كما تحدث عن طبيعة هذه الجزائر وعن عجائبها وغرائبها، أيضا نجده يتحدث عن ملوك السند الهند،

---

[1] أبو عبيد البكري: المسالك والممالك، ص189.

[2] المصدر نفسه، ص189-190.

والثروات الموجودة فيها، وأنواع الحيوانات التي تعيش بها، كما تحدث عن ديانات سكانها والخليج المرتبط بهذا البحر- بحر الهند – فتحدث عن طوله وفصل في ذكر أهواله وأنواع السمك التي تعيش به، كما تفصل في حديثه عن البحار نجده تحدث عن خلجانها وطبيعتها وأحوالها، كما تحدث عن الجزائر المحيطة بها وطبيعة السكان الذين يسكنونها كذلك تحدث عن الجبال التي تقع على سواحلها وأيضا تحدث عن طبيعة هذه البحار وصعوبة ركوبها وكيفية ركوبها، وقد خصص البكري لحديثه حول هذا البحر إثني عشرة صفحة.

يقول البكري في حديثه عن طول بحر الهند وعرضه وتقسيمه إلى ستة بحار: "...طوله من المشرق إلى المغرب ثمانية آلاف ميل وعرضه ألفان وسبعمائة ميل وعرضه في موضع آخر ألف وتسعمائة ميل، وهذا البحر وإن كان واحد فهو ستة أبحر متفرقة بعضهاّ إلى بعض، والأدلاء يعرفون فصل ما بينها لأن كل بحر لونا وريحا وسمكا ونسيما ليس لآخر، فمنها بحر لاروى وعليه بلاج صيمور وسوبارة وتانة وسندان* وكنباية وغيرها من بلاد الهند، ثم بحر هرنكد**، ثم بحر كلابار وهو بحر كله والجزائر، ثم بحر كندرج، ثم بحر الصنف الذي يضاف إليه العود، ثم بحر الصين وهو بحر صنغي لا يحد ما وراءه".[1]

وفي حديثه عن جزائر بحار بحر الهند يقول: "وفي جزائر بحر الصنف مملكة المهراج ولا يستطيع أن يطوف بجزائره بأسرع المراكب في سنين كثيرة، وفي جزائره أنواع الطيب والأفاوية، وليس لأحد بالهند من ذلك حاله، وجزيرة

---

* سندان: هي مدينة في مصقلة السند، بينها وبين الدبيل والمنصورة نحو عشر مراحل،...وبينها وبين البحر نحو نصف فرسخ، ياقوت الحموي: معجم البلدان، المجلد3، ص2676

** هرنكد: بحر في أقصى بلاد الهند والصين فيه جزيرة سونديب في آخر جزيرة الهند مما يلي المشرق، ياقوت الحموي: معجم البلدان، المجلد5، ص459.

[1] أبي عبيد البكري: المسالك والممالك، ص191-192.

الملك المهراج التي هي قراره مفرطة الكبر متصلة العمارة كثيرة النصب، ذكر بعض التجار الذين دخلوها الموثوق بنقلهم أن الديكة إذا رقت بما في الأشجار تجاوبت لمائة فرسخ لاتصال عمارتها وانتظام مساكنها... ".[1]، وفي حديثه عن عجائب بحر الصين نجده يقول: "فأما بحر الصين فإن من عجائبه أن فيه نوعا من السراطين يخرج منها كالذراع والشبر، فإذا بان عن الماء وصار إلى البر عاد حجر وانقلب عن الحيوانية وهو يدخل في أكحال العين".[2]

وفي حديثه عن خليج البربري الذي يتصل ببحر الهند نجده يقول: "ويخرج من هذا بحر الهند خليج يتصل بأرض الحبشة والزنج يسمى البربري طوله خمسمائة ميل وعرضه مائة ميل، وليس في البحار أطول من هذا الخليج وموجه أعمى لا ينكسر ولا يظهر منه زبد ككسر أمواج سائر البحار، يرتفع موجه ارتفاع الجبال الشواهق ثم ينخفض كأخفض ما يكون من الأدوية، وفيه يكون السمك لمعروف بالأول طول السمكة أبرعمائة ذراع إلى الخمسمائة ذراع بالذراع العمري هو ذراع أهل ذلك البحر... ".[3]

وفي حديثه عن خلجان وجزائر بحر فارس يقول: "وفي هذا الخليج جزائر كثيرة مثل جزيرة خارك، وفيها مغاص اللؤلؤ وهو المعروف بالخاركي، وجزيرة أوال فيعاينوا من وخلائق كثيرة من العرب، وفي هذا البحر الجبال المعروفة بكسير وعوير وثالث ليس فيه خبير، وهي جبال سود ذاهبة في الهواء لا نبات لها ولا حيوان فيها، يحيط بها موج من البحر المتلاطم تجزع منه النفوس ولا بد للمراكب من الدخول في وسطها والإجتياز عليها فتخطئ

---

[1] أبي عبيد البكري: المسالك والممالك، ص192-193.

[2] المصدر نفسه، ص193.

[3] المصدر نفسه، ص195.

وتصيب... ".[1] وفي حديثه عن بحر فارس نجده يقول: "ويتشعب من هذا البحر، خليج ثالث وهو بحر فارس، وطوله ألف وأربعمائة ميل وعرضه في الأصل خمسامئة ميل، وينتهي إلى بلاد الأبلة والخشبات وعبادان من أرض البصرة وخشبات البصرة سمي الموضع بذلك لأنها علامات من خشب منصوبة في البحر للمراكب إلى عمان...".[2]

بعدها انتقل للحديث عن البحر الأخضر وهو البحر الرومي نتحدث عن طوله وحدوده كما تحدث عن جبال هذا البحر والمعادن النفيسة بها، إضافة إلى خلجانه وطبيعة مياهها وجزائره المحيطة به وقد أفرد البكري لحديثه هذا صفحة واحدة، يقول في حديثه عن طوله وحدوده: "فأما البحر الرومي وهو بحر الشام ومصر والأندلس فإنه خليج بحر أقيانوس. طوله خمسة آلاف ميل، وقال السرسخي عن الكندي، ستة آلاف، وعرضه مختلف فيه ثمانمائة ميل وعشرة أميال، وقيل: اثنا عشر ميلا، وهو ما بين ساحل سبتة وطنجة وساحل الأندلس، وهو الموضع المعروف بالزقاق... ".[3]

وفي حديثه عن جزائر هذا البحر يقول: "وإنما يركب من هذا البحر مما يلي المغرب والشمال، فذلك عن أقاصي بلاد السودان، إلى بريطانية الجزيرة العظمى التي في أقصى الشمال، وفيه ست جزائر تقابل بلاد السودان

---

[1] أبو عبيد البكري: المسالك والممالك، ص200-201.

[2] المصدر نفسه، ص199.

[3] المصدر نفسه، ص202.

تسمى الخالدات، وفيه بقرب جزيرة بريطانية إحدى عشر جزيرة تسمى غديرة تقابل الأندلس، فسمت الخليج المعروف بالزقاق، ثم لا يعرف أحد ما بعده".[1]

ينتقل بعدها للحديث عن بحر نيطش [البحر الأسود] وفصل الحديث عنه حيث تحدث عن حدوده، وطوله وعرضه، كما تحدث عن كونه هو البحر الكبير وأن مانطيش بحيرة منه، وقد خصص لحديثه البكري لحديثه حول هذا البحر صفحة واحدة، يقول في حديثه عن حدود بحر نيطش: "وبحر نيطش يمر على بلاد لاذقة* إلى القسطنطينية أيضا، وطوله ألف ومائة ميل وعرضه ثلاثمائة ميل، وهذا البحر بحر نيطش وهو بحر أمم من الترك والبرغر والروس وغيرهم، وهو يمتد من الشمال ناحية المدينة التي تدعى لاذقة ثلاثمائة ميل، وهي من وراء القسطنطينية، ويتصل هذا البحر من بعض جهاته ببحر الخزر[بحر قزوين] المذكور من خليج وأنهار عظام هناك...".[2]

بعدها نجده ينتقل للحديث عن بحر باب الأبواب الذي تحدث عن حدوده وكذا عن الأماكن الموجودة فيه وقد خصص لحديثه هذا أربعة صفحات، يقول البكري في حديثه عن حدود بحر باب الأبواب: "فأما بحر باب الأبواب وهو بحر الخزر والجبل والديلم وجرجان وطربستان وأنواع من الترك، فينتهي من إحدى جهاته نحو بلاد الخوارزم من بلاد خراسان ويعرف أيضا بالبحر الخرساني، وطوله نحو ثمانمائة ميل وعرضه ستمائة ميل، وهو مدور

---

[1] أبي عبيد البكري: المسالك والممالك، ص203.

* لاذقة: مدينة في ساحل بحر الشام نفد في أعمال حمص وهي غربي جبلة بينهما ستة فراسخ، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج5، ص6.

[2] أبو عبيد البكري: المسالك والممالك، ص204.

الشكل إلى الطول، وهذا هو بحر الأعاجم معمور من جميع جهاته... ".[1] وفي حديثه عن التنانين يقول: "...وهذا البحر كثير التنانين وكذلك بحر الشام وقد اختلف الناس في التنين، فمنهم من رأى أنه ريح سوداء تكون في قعر البحر فتظهر إلى الجو فتلحق بالسحاب كالزوبعة إذ ثارت في الجو صعداء، فيتوهم الناس أنها حيات سوداء لسواد السحاب وذهاب الضوء وترادف الرياح، ومنهم من رأى أنها دواب تكون في قعر البحر فتعظم وترعى دواب البحر، فيبعث الله عليها ملائكة وسحبا فتخرجها منه، وهي على صورة الحية السوداء... ".[2]

لينتقل بعدها للحديث عن المد والجزر في البحار حيث تحدث عن سبب حدوثها ولم يأخذ منه الحديث عنها سوى صفحتين، يقول في حديثه عن طريقة حدوث المد والجزر: "فأما علة المد والجزر فمختلف فيها، فقد قيل: علة ذلك القمر على ما بين أبو معشر، وقال قوم: هي الأبخرة التي تتولد في باطن الأرض، فإنها إذا كثفت دغعت حينئذ ماء هذا البحر فلا يزال على ذلك حتى تنقص موادها فيتراجع الماء حينئذ إلى قعور البحار فكان الجزر، فهذا يدل عليه كونه في كل أوان وفي غيبة القمر وطلوعه".[3]

بعدها ينتقل البكري للحديث عن عجائب البحر المحيط وكذا عجائب سائر البحار التي تم ذكرها من قبل وقد خصص لحديث هذا أربعة عشر صفحة، في حديثه عن عجائب البحر الأخضر: "زعموا أن البحر الأخضر عرش إبليس تشبه بالباري سبحانه وتقدست قدرته، حوله نفر من الأبالسة والعفاريت العظام وسائر أصناف الجن، فمنهم من لا يفارقه من حجابه وخدمه،... وبه جزيرة اتخذها سجنا لمن خالف أمره من الجن، وفي تلك

---

[1] أبو عبيد البكري: المسالك والممالك، ص205.

[2] المصدر نفسه، ص205،206.

[3] المصدر نفسه، ص209.

الجزيرة هيكل سليمان بن داود عليه السلام... ".[1] وفي حديثه عن عجائب البحر الأسود نجده يقول: "وأما البحر الأسود الزفتي وهو متصل به وهو شديد النتن وليس فيه غير قلعة الفضة يقال إنها معمولة وقيل أنها خلقة، ومن هذا البحر يخرج بحر الصين وأوله بحر فارس... وفيه عجائب كثيرة من الحيوان، وفيه سمك طول السمكة منها مائة ذراع وأكثر وأقل، وفيه جزائر تنبت الذهب ومغاوص اللؤلؤ الجيد، وفي هذا البحر قصر من البلور منيف رفيع على قلعة تنير برج".[2]

ويقول أيضا: "وفي هذا البحر المذكور أسماك طيارة تطير ليلا فترتعي في البراري فإذا انف طلوع الشمس عادت إلى البحر، وفيه سمك خضراء شهباء من أكل منها اعتصم من الطعام أيام كثيرة وتجزأ بها عنه فلم يرده ولم يجد لفقده مساءة، وفيه سمكة ربما نبت على ظهرها الحشيش والصدف، وربما أوسى عليها أصحاب المراكب فيظنون أنها جزيرة... ".[3] وفي حديثه عن عجائب بحر الصنف يقول: "وفي هذا البحر جزيرة قرطايل التي يسمع فيه الليل والنهار المعزف والطبول، ويقال إن فيها الرجال، وقد مضى ذكرها، وفيها أشجار القرنفل وتشتريه التجار من قوم لا يرونهم، وإنما يضعونه على الساحل فيأخذه التجار وتترك هناك العوض وقيل إن التجار يتركون البضائع على الساحل ويعودون إلى مراكبهم، فإذا أصبح من غد ذلك اليوم جاؤوا فوجدوا إلى جانب كل بضاعة كوما من القرنفل، فإذا رضيه أخذه وترك البضاعة، وإلا اخذ بضاعته وترك القرنفل، وإن أخذهما معا لم تقدر مراكبهم على السير حتى يردوا القرنفل... ".[4]

---

[1] أبو عبيد البكري: المسالك والممالك، ص2010- 211.

[2] المصدر نفسه، ص211-212.

[3] المصدر نفسه، ص213.

[4] المصدر نفسه، 215.

كما تحدث عن عجائب بحر الصين يقول: "وفي هذا البحر يكون اللخيم سمكة تلتقم الناس، وربما مات الرجل من ركاب البحر فيرمي به في البحر، فلا ينحط إلا في قاع اللخيم كأنه كان له مرصدا، وفي هذا البحر يرى وجه عظيم على صورة الإنسان إلا انه مفرط الكبر مستدير يشبه لونه لون القمر بسبب ثنية بين جبلين".[1]

ويتحدث أيضا عن عجائب البحر الأخضر فيقول: "وفي البحر الأخضر جزيرة تدعى على بعد، فإذا اقترب منها غابت عنه، وإذا رجع إلى الموضع الذي رآها منه ونظر إليها[رآها] بادية بينه، وقيل إن فيها شجرة تطلع بطلوع الشمس فلا تزال تطلع إلى نصف النهار ثم تعود إلى الانحطاط حتى تغيب [مع] مغيب الشمس، ويقول البحريون إن في ذلك البحر سمكة صغيرة يقال لها النشاكل، إذا حملها للإنسان معه أبصر تلك الجزيرة ودخلها، وهذا شيء عصيب طريف ".[2]

وأيضا من عجائب بحر الصين التي تحدث عنها الجزيرة التي لا يسكنها سوى النساء يقول في هذا الشأن: "وفي تخوم بحر الصين جزيرة النساء لا يسكنها إلا النساء، وهن يلقحن من الريح ويلدن النساء، وقبل إنهن يلحقن من شجر عندهن يأكلن منه، ويذكر أن الذهب عندهن عروق من الخيزران وأنه وقع إليهن رجل فهم من بقتله، فرحمته امرأة منهن وحملته على خشبة فأرادته الأمواج حتى أتت به بعض بلاد الصين، فوصل إلى ملك الصين وعرفه حال الجزيرة فجهز إليها المراكب، فأقاموا معه يطوفون في البحر ثلاثة أعوام يطلبونها فلم يقعوا لها على أثر".[3]

---

[1] أبو عبيد البكري: المسالك والممالك، ص216.

[2] المصدر نفسه، ص222.

[3] المصدر نفسه، ص223.

بعد حديثه عن عجائب البحار، انتقل للحديث عن انتقال البحار من مكان إلى مكان وقد استغرق البكري في حديثه هذا حوالي أربع صفحات يقول البكري في هذا الخصوص: "ذكر صاحب المنطق أن موضع البر قد يكون بحرا أو موضع البحر قد يكون برا قال: وليس مواضع الأرض الرطبة أبدا رطبة لا يابسة أبدا يابسة، قال: وللمواضع شباب وهم وحياة كما في الحيوان".[1]

ويقول أيضا في الشأن نفسه: "قال س: وقد كان البحر فيما سلف في الموضع المعروف بالنجف، وهو بالحيرة وكانت ترسى هناك سفن الهند والصين ترد على ملوك الحيرة، فصار بين الحيرة وبين البحر مسيرة أيام كثيرة... ".[2]

وإجمال حديث أبي عبيد البكري في كتابه المسالك والممالك عن البحار هو أربعون صفحة.

المطلب الرابع: نصوص الغرناطي حول البحر

1- أبو حامد الغرناطي: (473-565) (1080-1169)

بعد الغرناطي واحد من الرحالة والجغرافيين العرب والأندلسيين المعروفين في القرن 6هـ، "هو أبو حامد أبو عبد الله محمد بن عبد الرحيم المازلي الغرناطي الاندلسي الأقليش القيرواني".[3] ، ويقول فؤاد قنديل في كتابه أدب

---

[1] أبو عبيد البكري: المسالك والممالك، 224.

[2] المصدر نفسه، ص225.

[3] اغطاطيوس كراتشكوفسكس: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص 295.

الرحلة في التراث العربي متحدثا من تاريخ ولادته: "ولد محمد بن عبد الرحيم بن سليمان بن ربيع القيسي الغرناطي في مدينة غرناطة عام 473هـ/1060م".[1]

"كان شغوفا بالترحال، فطاف بإفريقية الشمالية وصقلية، وزار مصر والشام والعراق، وتحول إلى ناحية بحر الخزر وتوغل في بلاد البلغار على ضفاف نهر الفولجا وبلاد الصقالبة وإقليم باشغرد الواقع بين البلغار والقسنطينية".[2]

وقد ألف الغرناطي كتابين في الجغرافية دون فيهما جميع المعارف التي جمعها خلال رحلاته، هما كتاب المغرب في بعض عجائب المغرب والثاني هو كتاب تحفة الألباب ونخبة الإعجاب الذي " كتبه عام 557هـ-1162م بعد فروجه من بغداد واستقراره بالموصل".[3]

وينقسم الكتاب إلى أربعة أبواب الأول منها يعطي صفة الدنيا وسكانها من إنسها وجانها، ويشمل الثاني صفة عجائب البلدان وغرائب البنيان، والثالث منها يتناول صفة البحار وعجائب حيواناتها وما يخرد منها من العنبر والقار وما في جزائرها من أنواع النفط والنار، أما الرابع فيحوي صفات الحفائر والقبور وما تضمنت من العظام إلى يوم البعث والنشور.

---

[1] فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، ص335.

[2] شوقي ضيف، أدب الرحلات، ص51.

[3] علي إبراهيم كردي: أدب الرحلة في المغرب والأندلس، د ط، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، سوريا، 2013، ص28.

والسبب وراء تأليف الغرناطي لكتابه هذا –تحفة الألباب ونخبة الإعجاب– هو "الشيخ معين الدين عمر بن الأخضر الأربي الذي حثه على تدوين مشاهداته وتجاربه في كتاب ينتفع به الناس، فأجاب طلبه بتأليف كتابه تحفة الألباب ونخبة الإعجاب".[1]

إذا فالداعي وراء تأليف الغرناطي لهذا المؤلف وتأليف كتاب ينتفع به الناس ويرجعون إليه ويعتمدون عليه في مجال الجغرافية.

2– النصوص:

" بدأ أبو حامد الغرناطي رحلته إلى مصر ثم بعدها عاد إلى الأندلس لينتقل بعدها إلى جزيرة سردانيا وصقلية ثم الإسكندرية والقاهرة، بعدها ارتحل إلى بغداد ومنها ذهب إلى أبهر* ليعبر بعدها بحر الخزر [بحر قزوين]، ليصل إلى نهر الفولجا ومنها إلى خوارزم**.

[1] ينظر: أبو حامد الغرناطي: تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، تح: إسماعيل العربي، ط1، منشورات الآفاق الجديدة، المغرب، 1993، ص31.

* أبهر: مدينة مشهورة بين قزوين وزنجان وهمدان من نواحي الجبل، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج1، ص82

** خوارزم: طولها مائة وسبع عشرة درجة وثلاثون دقيقة، وعرضها خمس وأربعون درجة، وهي الإقليم السادس، وخوارزم ليست اسما للمدينة إنما هو اسم للناحية بجملتها، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج2، ص395.

ثم بلغار* فباشفرد** ليعود بعدها إلى بغداد ثم الموصل لينتقل بعدها إلى الشام ثم خراسان*** ثم عاد إلى دمشق حيث توفي سنة565هـ".[1] ونجده يتحدث عن البحار بشكل مفصل في الباب الثالث من الكتاب الذي جعله بعنوان في صفة البحار وعجائب حيواناتها وما يخرج منها من العنبر والقار وما في جزائرها من أنواع النفط والنار.

ويفتتح الحديث عنها بالحديث عن البحر المحيط وارتباط جميع البحار الأخرى به ماعدا بحر الخزر [بحر قزوين] وغير ذلك من البحار الصغيرة كما تحدث عن ارتباط بحر الروم [البحر الأبيض المتوسط] بالبحر المحيط وعن المدّ والجزر بينهما، بعدها تحدث عن خلجان بحر الهند متغيرة الألوان، وقد خصص الغرناطي لحديثه هذا حوالي صفحتين ونصف.

يقول في حديثه عن ارتباط البحار بالبحر المحيط:" أعلم أن البحر المحيط الذي أحاط بالدنيا والأرض في وسط البحر كالكرة في غدير ماء، وهو البحر الأسود(أ) الذي يعرف ببحر الظلمات، لا تدخله السفن، وبحر الهند خليج منه(ب) وبحر الروم خليج، وبحر اللاذقية خليج منه وبحر القلزم خليج منه، وبحر فارس خليج منه يمتد

* بلغار: مدينة الصقالبة، ضاربة في الشمال، شديدة البرد، لا يكاد الثلج يقلع عن أرضها، ياقوت الحموي: معجم البلدان ج2، ص485.

** باشفرد: بلاد بين القسطنطينية وبلغار، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1،ص 322.

*** خراسانّ: بلاد دواسقة، أول حدودها مما يلي العراق أنزذوار قصبة جوين وبهيق، وأخر حدودها مما يلي الهند، خارستان وغزنة وسجستان وكرمان، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص485

[1] ينظر: أبو حامد الغرناطي: تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، ص7_10.

بعضه إلى البصرة (و) إلى عبدان وسيراف وكرمان والبحرين وجزيرة قيس والديبل إلى بلاد الحبشة إلى الزنج وإلى سرنديب والصوليان".[1]

وفي حديثه عن المد والجزر بين البحر المحيط وبحر الروم نجده يقول:" فأما البحر الأسود الذي يخرج منه بحر الروم وبينهما مجمع البحرين الذي عرضه ثلاثة فراسخ، وطوله عشرون فرسخا، والله أعلم وفيه الجزر والمد من طلوع الشمس يعلو البحر الأسود، وينصب في بحر الروم من مجمع البحرين، حتى يفيض في بحر الروم ويخرج عن جوانب البحر حتى يصل المد إلى خلف القسطنطينية، مسيرة شهور في ساعة واحدة حتى إلى وقت الظهر فإذا استوت الشمس في كبد السماء، غاص البحر الأسود فعاد ينصب الماء من البحر الأخضر..." [2]

ويقول في حديثه عن خلجان بحر الهند متغيرة الألوان:" وكذلك [يوجد] أيضا في بحر الهند خليج أحمر كالدم، وبحر أصفر كالذهب، وخليج أبيض كاللبن، وخليج أزرق كالنيل، والله أعلم، من أي شيئ تتغير هذه الألوان في هذه المواضع، والماء نفسه أبيض، صاف كسائر المياه".[3]

لينتقل بعدها للحديث عن عجائب وغرائب الحيوانات التي تعيش في البحر الأسود ونجده أفرد لحديثه هذا خمس صفحات، يقول في هذا الشأن :" ويخرج الله تعالى من البحر الأسود سمكا كبارا كالجبال يتبعها سمك أكبر منها ليأكلها، فتفر من بين يديه فتعبر في مجمع البحرين، وتأتي السمكة الكبرى لتعبر في طلبها فيضيق عنها مجمع

---

[1] ينظر: أبو حامد الغرناطي: تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، ص117.

[2] المصدر نفسه، ص118.

[3] المصدر نفسه، ص119.

البحرين لكبرها وعظم جسدها، فترجع إلى البحر الأسود،... ولقد كنت في مجمع البحرين في سفينة فخرجت سمكة من البحر، مثل الجبل العظيم، فصاحت صيحة لم أسمع قط أوحش منها..." [1]

ويقول أيضا: ورأيت أيضا سمكة كالجبل يبدو رأسها وظهرها وذنبها، ومن رأسها إلى ذنبها عظام سود كأسنان المنشار، كل عظم في رؤية العين أكثر من ذراعين، وكان بيننا وبينها في البحر أكثر من فرسخ، فسمعت الملاحين يقولون هذه السمكة تعرف بالنشار وإذا صادفت أسفل السفينة قسمتها نصفين." [2]

ويقول في نفس الشأن:" ولقد كنت مرة في زورق أنظر إلى ماء البحر إذ مرت بي قطعة شبكة مقدار ذراعه في مثله، مفتولة الخيوط، مربعة العيون ظاهرة العقد، كأنها قطعة من شبكة صياد، فأخذتها من البحر، فاضطربت في يدي فألقيتها في البحر وسبحت وغاصت في البحر وهي من حيوانات البحر، فتعجبت من ذلك." [3] ويقول أيضا:" وفي البحر أنواع من الحيوانات لها أجنحة تطير بها، ولقد رأيت سمكة سوداء بطول الذراع سوداء الظهر بيضاء البطن خرجت من البحر وطارت في الهواء ما شاء الله تعالى ثم ألقت نفسها في البحر فسألت عنها فقالوا: اسمها الخطاف." [4]

ولنجده بعد ذلك ينتقل للحديث عن أنواع السمك التي تعيش في بحر الروم، والمخلوقات العجيبة والغريبة التي تسكنه، كما تحدث أيضا عن أنواع السمك الموجودة في بحر الظلمات، وقد خصص الغرناطي لحديثه هذا ثلاث صفحات، يقول في حديثه عن الأسماك الموجودة في بحر الروم:" ويكون في بحر الروم سمك طويل يكون

---

[1] ينظر: أبو حامد الغرناطي: تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، ص119.

[2] المصدر نفسه، ص120.

[3] المصدر نفسه، ص 122.

[4] المصدر نفسه،ص124.

طول السمكة أكثر من مائة ذراع له أنياب الفيل الصغير، تأخذ أنيابه وتباع في بلاد الروم وتحمل إلى سائر الدنيا، وهو أحسن وأقوى من باب الفيل، ويظهر في بعضه إذا شق نقوش عجيبة يسمونها الجوهر، ويتخذون من تلك الأنياب نصبا للسكاكين ورؤوسا للسياط..." [1]

ويقول في نفس الشأن:" وفي البحر سمك صغير يكون كالذراع يسمى بلب إذا اصطادوه ومسكوه وبقي في أيديهم ما شاء الله لا يموت ولا يزال يتحرك ويضطرب فيقطعونه قطعا...وهو يتب ويضطرب، وإن جعلت منه قطعة على النار، وثب إلى خارج النار، وربما أصابت وجه الإنسان، وإن جعلت في القدر في ماء حار كالنار، ووهي مقطعة ، وربما قلبت القدر، ويحتاجون إذا طبخوه أن يثقلوا القدر بحديد ثقيل أو صخرة ثقيلة حتى ينضج، وما لا ينضج لا يموت ولو قطع ألف قطعة، وهو من عجائب المخلوقات." [2]

ويقول في حديثه عن أنواع السمك التي تعيش في بحر الظلمات:" ويخرج من بحر الظلمات أنواع من سباع السمك لها عدوان كعدوان الذئاب والأسود الضارية، وأشد وأدهى وأضر منها نوع يسمى الكوسج يكون كالسمك طويلا، طوله عشرة أذرع وأقل، في فمة الحنك الأعلى، سبع صفوف أسنان أحد من المناشير الفولاذ وأقطع وأقوى، وفكه الأسفل أقصر من الفك الأعلى، وفيه صف واحد من الأسنان أحد من السيف المرهف، يقطع الآدمي نصفين، وأي حيوان ظفر به قطعه في أسرع من لمح البصر." [3]

---

[1] ينظر: أبو حامد الغرناطي: تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، ص124.

[2] المصدر نفسه، ص 125.

[3] المصدر نفسه، ص126.

ويقول في نفس الشأن:" وهناك أيضا في البحر سبع من السمك يعرف بالتنين، أسود طويل كالثعبان العظيم، أحمر العينين، له أنياب كأسنة الرماح أشر من الكوسج، وأشد وأقوى عدوانا [بحيث يفر الكوسج منه، فيما يقال، والله أعلم، وهو يثب من البحر على من كان في الشاطئ فيفترسه، وهو آفة عظيمة، وإذا أخذ وهو صغير ووقع في شبكة، قتلوه، ويطعمون لحمه لمن به الفالج ولمن غلب عليه البرد والرطوبة، فيستريح ويبرأ لحرارة لحمه." [1]

لينتقل بعدها للحديث عن الجزائر الموجودة في بحر الروم وسكانها وما فيها من عجائب، وقد أفرد لحديثه هذا حوالي صفحة ونصف يقول في حديثه عن هذه الجزائر:" وفي بحر الروم [من الجزائر كثير جدا، منها جزيرة تسمى سردانية، وهي عظيمة جدا فيها أمة من الكفار خلق كثير شجعان، والبحر الذي هم فيه يقال له بحر اللاذقية، خلف القسطنطينية، متصل بالبحر الرومي الذي [يمتد] في قبلي بلد القسطنطينية.]" [2]

ويقول أيضا:" وفي ذلك البحر جزر يسكنها المسلمون، وجزائر لا يسكنها أحد، وفيها جزيرة كبيرة يقال لها جالطة مملوءة بأغنام سمان مالها صاحب تقصدها السفن يأخذون منها ما لا نهاية له ويذبحونها ويملئون السفن من لحومها ولا تفنى لكثرتها." [3]

بعدها نجده ينتقل للحديث عن بحر الهند والصين وعجائبهم وغرائمهم من الحيوانات وكثرة جزائرهم، وكذا عجائبها، كما تحدث عن الحيوانات الغريبة التي تقطن في نيل مصر وقد خصص الغرناطي لحديثه هذا حوالي ستة

---

[1] ينظر: أبو حامد الغرناطي:تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، ص126-127.

[2] المصدر نفسه، ص 127.

[3] المصدر نفسه، ص 128.

صفحات. وفي حديثه عن كثرة جزائر بحري الهند والصين يقول:" وأما في بحر الهند والصين، ففيهما آلاف من الجزائر الكبار، بعضها مسكونة وبعضها غير مسكونة، وفيها من أنواع النعم والغابات والحيوانات مالا يعد ولا يحصى." [1]

ويقول في حديثه عن عجائب هذه الجزائر:" ... وكنت سمعت أن عند تلك الجزيرة- سرنديب- دهنا إذا دهن به الإنسان لا يعمل الحديد فيه شيئا فأهديت إلى أخت الملك هدية وتوسلت بها إلى الملك فأعطاني حجرين، كل واحد كالبيضة الصغيرة، الواحد أبيض منقط بحمرة والآخر منقط بسواد، وقال: يؤخذ الشرج فيغلى حتى يذهب نصفه وجعل هذان الحجران في الدهن ومن دهن بذلك الدهن لم يؤثر الحديد فيه شيئا حتى يغسل جسده، ومن شرب من ذلك الدهن عشرة دراهم ولا يأكل لبنا ولا ما يتخذ من اللبن لم يضره الحديد البتة." [2]

وأيضا من عجائب بحر الصين التي ذكرها وتحدث عنها حيوان الرّخ يقول نقلا عن رجل يعرف بعبد الرحيم الصيني: " فذكر أنه سافر إلى بحر الصين وألقتهم الريح إلى جزيرة عظيمة فخرج إليها أهل السفينة ليأخذوا الماء والحطب، فرأوا فيها قبة عظيمة أعلى من مئة ذراع، لها لمعان وبريق، فتعجبوا منها فلما دنوا منها وإذا هي بيضة الرخ فلما دنوا منها جعلوا يضربونها بالفؤوس والخشب والحجارة حتى انشقت كأنه جبل فتعلقوا بريش جناحه فجروه، فنفض جناحه فبقيت هذه الريشة عند علماني..."[3]

---

[1] أبو حامد الغرناطي:تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، ص128-129.

[2] ينظر: المصدر نفسه، ص129-130.

[3] المصدر نفسه، ص 131-132.

ويقول أيضا في حديثه عن عجائب تلك الجزيرة:" وقد كان بعضهم طبخ في الجزيرة قدرا وحركوها ببعض عيدان الحطب الذي طبخوا به، وكان فيهم مشائخ، فلما أصبحوا رأوا المشائخ قد اسودت لحاهم ولم يشيبوا بعد ذلك اليوم من أكل من ذلك الطعام فكانوا يقولون إن ذلك العود الذي حركوا به القدر من شجرة الشباب والله أعلم."[1]

وفي حديثه عن حيوانات نيل مصر يقول:" وأيضا في نيل مصر طير أبيض الرأس أسود الشعر يقال عقاب الماء كأنه النسر في كبره يطير على النيل ثم يزج نفسه في الماء فيخرج وفي مخالبه سمكة كبيرة يقولون إنها من أطيب السمك الذي في النيل، فيصعد بها في الهواء، فيجتمع إليه الطير تأكل سمكته التي في مخالبه فيصبح ذلك العقاب:" الله ! فوق الفوق !"، بكلام مليح يسمعه الناس من بعد، وهو نوع كثير على نيل مصر."[2]

لينتقل بعدها للحديث عن بحر الخزر، فيتحدث عن جزائره وما بها من غرائب وعجائب، كما تحدث عن نهر آتل الذي يصب فيه وتفصل في حديثه عنه، فذكر طوله وعرضه وكثرة الأسماك فيه، ليعود للحديث عن جزائر بحر الخزر(بحر قزوين)، كما تحدث عن البلغار وفصل حديثه عنها وعن أحوالها، وقد أفرد لحديثه هذا خمس صفحات ونصف.

ففي حديثه عن عجائب وغرائب جزائره نجده يقول:" ... وفيه جزائر جماعة منها جزيرة تعمرها الجن يسمع الناس فيها أصواتهم ولا يسكنها شيئ من الحيوان، وجزيرة أيضا يسكنها الجن مملوءة من أنواع الحيات والطير يفرخ بين الحيات ولا يضر فراخ الطير، وكنا نعبر عندها بالسفن فيخرج أهل السفينة يأخذون بيض ذلك الطير وفراخه

---

[1] أبو حامد الغرناطي:تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، ص 132.

[2] المصدر نفسه، ص 134.

من بين الحيات والثعابين ولا تؤدي أحدا."[1] ويقول في نفس الشأن:" وهناك جزيرة سوداء كالقير، يخرج منها ماء مر مالح منتن، ويخرج مع ذلك الماء حجارة مربعة كأنها الصفر الأصفر الجيد، يأخذها الناس مثاقيل للموازين وفي مقابلة هذه الجزيرة على جانب البحر أرض سوداء كالقير ينبت فيها الحشيش، وفيها أنواع من الوحوش ويخرج من تلك الأرض السوداء القير والنفظ الأسود والأبيض، وهي قريبة من باكو..."[2]

ويقول أيضا:" ... ويظهر في الليل في تلك الأرض، والجزيرة نار مثل نار الكبريت زرقاء تشعل ولا تحرق الحشيش، ولا حرارة لها، وإذا نزل عليها المطر زادت واشتعلت وعلت، يراها الناس من بعيد، وليس لها في النهار أثر..."[3]

وفي حديثه عن نهر آتل يقول:" وينصب في ذلك البحر نهر عظيم يسمى آتل يجيئ من فوق بلغار من ناحية الظلمات، يكون مثل الدجلة مائة مرة أو أكثر، يخرج منه "إلى البحر سبعون فرعا، كل فرع كالدجلة ويبقى منه عند سخسين نهر عظيم مشيت عليه في زمان الشتاء وقد جمد حتى صار كالأرض تمشي الخيل والعجل وسائر الدواب عليه، وكان عرضه ألف وثمانمائة ونيف وأربعين خطوة،..."[4]

ويتحدث عن السمك الذي يخرج منه فيقول:" وفيه أنواع من السمك، كل نوع لا يشبه الآخر، السمكة فيها مائة من وأكثر وأقل، وهو طويل له خرطوم فيه فمه صغير يسع الأصبع، ليس فيه شوك وليس له سن ولا له عظم، يخرج من معدته الفراء يحمل إلى جميع الآفاق ويشوى ويطرحون تحته الأرز، كما يكون تحت اللحم الأرز

---

[1] أبو حامد الغرناطي: تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، ص134.

[2] المصدر نفسه، ص135.

[3] المصدر نفسه، ص135.

[4] المصدر نفسه، ص 136.

كما يكون تحت الحمام، فيكون أطيب من كل لحم يؤكل في جميع الدنيا وكذلك الأرز الذي يكون تحته أعذب من جميع الأرز الذي يكون تحت الدجاج المسمن، ودهنه ولحمه لا زفر فيه ولا رائحة البتة، وهو من عجائب الدنيا." [1]

وفي حديثه عن مدينة البلغار:" وسمعت ببلغار وهي مدينة في آخر بلاد الإسلام في الشمال، هي فوق سقسين بأربعين يوما، يكون النهار في الصيف عشرين ساعة، والليل أربع ساعات، ويكون الليل في الشتاء عشرين ساعة والنهار أربع ساعات، ويشتد البرد فيها حتى إذا مات لأحد حد ميت، لا يقدر أن يدفنه ستة أشهر لأن الأرض تصير كالحديد ولا يمكن أن يحفر فيها قبره. "[2]

ويقول في حديثه عن عجائب الحيوانات في سواحل بلغار:" ولقد حدثني بعض التجار أنهم خرجت إليهم سنة من السنين سمكة عظيمة فثقبوا أذنها وجعلوا فيها الحبال وجروها فانتفخت أذنها وخرج من داخلها جارية حسناء جميلة بيضاء سوداء الشعر، حمراء الخذين عجزاء، من أحسن ما يكون النساء من سرتها إلى نصف ساقها جلد أبيض كالثوب خلقه يتصل بجسدها ليستر حيها وجسدها كالأزر دائر عليها، فأخذها الرجال إلى البر، وهي تلطم وجهها وتنتف شعرها وتعض ذراعها وثديها... "[3]

هذا بعض ما قاله الغرناطي في غرائب وعجائب بحر الخزر والروم والبحر الأسود، وإجمالي حديثه غن البحار في كتابه تحفة الألباب ونخبة الإعجاب هو ثلاث وعشرون صفحة.

---

[1] أبو حامد الغرناطي: تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، ص 136.

[2] المصدر نفسه، ص ص137-138.

[3] المصدر نفسه، ص139.

المطلب الخامس: نصوص أبو القاسم الزياني حول البحر

1- أبو القاسم الزياني (1147هـ-1249هـ/1734م-1833م)

" أبو القاسم ابن أحمد الزياني ولد سنة 1147هـ بمدينة فاس، كانت رحلته الأولى سنة 1169هـ وهو ذو ثلاث وعشرون عام بغرض أداء فريضة الحج مع والده، وعبر مصر وبحر القلزم(البحر الأحمر) وصولا إلى مكة حيث أدى فريضة الحج، ومنها إلى المدينة ثم عاد بعد ذلك إلى بلده المغرب. "[1] وعند العودة غيروا طريق الرجوع بسبب الحرب بين انجلترا وفرنسا وركبوا البحر من الإسكندرية إلى إيطاليا وقد زار في طريق العودة العديد من بلدان أوروبا الجنوبية- أما رحلته الثانية فكانت باتجاه المشرق إلى استنبول سنة 1200هـ وركب البحر مارا على تونس وصولا إلى القسطنطينية، في حين أن الرحلة الثالثة كانت هي الأخرى إلى استنبول سنة 1208هـ ومنها رحل إلى سوريا والقاهرة ثم عاد إلى سوريا ومنها إلى آسيا الصغرى ثم ركب البحر من آزمير إلى تونس ومنها عاد إلى وطنه".[2]

وقد جمع الزياني كل ما حصله حول الجغرافيا في رحلاته الثلاث في كتاب سماه "الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا" والذي "أتم تأليفه عام 1233هـ ويبتدأ الزياني حديثه في كتابه بوصف لبلده المغرب بعدها تناول رحلته إلى استنبول وتحدث عن الأندلس والقسطنطينية، بعدها تحدث عن الجزائر وتونس، لينتقل بعدها لوصف

---

[1] ينظر: أبو القاسم الزياني، الترجمانة الكبرى- في أخبار المعمور برا وبحرا-، تح: عبد الكريم البيبلالي، دط، دار المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط- المغرب، 1991، ص ص58 59.

[2] ينظر: اعناطيوس كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، نقل: صلاح الدين عثمان هاشم، مراجعة: تيغور بلياييف، القسم 2، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، ص770.

مصر ووصف رحلته التي قام بها إلى الحجاز، التي أعقبها بوصف للبحار، وفي الأخير قام بالحديث عن مدن العالم مبتدأ ببلده المغرب. "[1]

2- النصوص:

يبتدأ الزياني حديثه عن البحار بالبحر المحيط الذي يعتبر أصل البحار كلها، كما تحدث أيضا عن أبرهة ذو المنار وأصنامه الثلاثة الواقعة في البحر المحيط، ثم نجده يتحدث عن البحار التي تتصل به- البحر المحيط- وعن خلجانها، وقد أفرد لحديثه هذا أربع صفحات.

يقول في حديثه عن أصل البحار:"... فأولها البحر الكبير ويسمى المحيط وهو البحر الأعظم الذي منه مادة جميع البحار المتصلة والمنفصلة، وهو بحر لا يعرف له ساحل ولا يعلم عمقه إلا الله تعالى... "[2] ، وفي حديثه عن الأصنام التي وضعها أبرهة ذو المنار فيه يقول:" وفيه الأصنام التي وضعها أبرهة ذو المنار الحميري قائمة على وجه البحر وهي ثلاثة أصنام... وأحدهم أخضر وهو يومئ بيده كأنه يخاطب من ركب يأمره بالرجوع، والصنم الثاني أحمر يشير إلى نفسه ويخاطب من ركب هذا البحر أن يقف عنده ولا يتجاوزه، والصنم الثالث أبيض كأنه يومئ بأصبعه إلى البحر من جاوز هذا المكان هلك، وعلى صدر الصنم الأول مكتوب بالمسند: هذا ما صنعه أبرهة ذو المنار التبعي الحميري لسيدته الشمس تقربا إليها."[3]

---

[1] ينظر: اعناطيوس كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص771.

[2] أبو القاسم الزياني: الترجمانة الكبرى، ص291.

[3] المصدر نفسه، ص 292.

كما تحدث عن اتصال البحار وأنها خلجان منه يقول قي هذا الشأن:" إن المحيط الذي في المغرب على ساحل بلاد الأندلس يسمى بالمظلم أيضا لا يلج فيه أحد أبدا، ماذًا في جهة الشمال وهو بحر القرم، يمر على سور قسطنطينة، ويتضايق حتى يقع في بحر الشام، ثم يمتد نحو الشمال في محاذات أرض الصقالبة ويخرج منه خليج في شمالي الصقالبة فإذا وصل إلى قرب أرض المسلمين وبلادهم انحرف نحو المشرق... ثم يتشعب منه أعظم الخلجات وهو الخلجات وهو الخليج الفارسي... "[1]

هذا بعض ما قاله الزياني عن البحر المحيط واتصال البحار الأخرى به بعدها نجده ينتقل للحديث عن البحر المظلم والبحر المحيط الغربي حيث تحدث عن سبب تسميته بالمظلم، وكذا صعوبة ركوبه، كما تحدث عن العنبر الجيد وأماكن تواجده في هذا البحر وكذا حجر البهت وحجارة مختلفة الألوان، بعدها انتقل للحديث عن بحر الصين وعجائبه، كما تحدث عن بحر الهند فتطرق إلى سعته وخيراته وخلجانه كما تحدث عن بحر فارس وخيراته وكثرة معادنه، أيضا تحدث عن بحر عمان وبحر القلزم وبحر الزنج وقد خصص الزياني لحديثه هذا صفحتين ونصف يقول في حديثه حول سبب تسمية البحر المحيط الغربي بالبحر المظلم "... وسمي المظلم لكثرة أهواله وصعوبة متنه ولا يمكن لأحد من خلق الله أن يلج فيه، إنما يمر بطول الساحل لأن أمواجه كالجبال الرواسي، وظلامه كدر، وريحه زفر ودوابه متسلطة، ولا يعلم ما خلفه إلا الله تعالى، ولا وقف بشر على تحقيق خبره."[2]

ثم يتحدث عن العنبر الجيد وخواص حجر البهت يقول:" وفي ساحل هذا البحر يوجد العنبر الأشهب الجيد، وحجر البهت، وهو حجر من حمله أقبل الناس عليه بالمحبة والتعظيم وقضيت حوائجه، وسمع كلامه،

---

[1] أبو القاسم الزياني: الترجمانة الكبرى، ص292-293.

[2] المصدر نفسه، ص295.

وانعقدت عنه السنة الأضداد ويوجد أيضا بساحله حجارة مختلفة الألوان، يتنافس أهل تلك الأرض والبلاد في أثمانها، ويتوارثونها ويزعمون أن بها خواص عظيمة وفي هذا البحر والجزائر العامرة والخراب مالا يعلمه إلا الله تعالى... "[1]

لينتقل بعدها للحديث عن بحر الصين يقول:" وأما بحر الصين وما به من وبه من عجائب ويسمى هذا البحر بأسماء عديدة بحر الضب وبحر هركن وبحر الصنجي، وهو متصل بالمحيط من المشرق، وليس على وجه الأرض بحر أكبر منه إلا المحيط، وهو كثير الموج، عظيم الاضطراب، بعيد القمر، فيه المد والجزر، كما في بحر فارس، ويستدل على هيجانه بأن يطفو السمك على وجهه قبيل هيجانه بيوم واحد، ويستدل على سكونه ببيض طائر معروف، يبيض على وجه الماء في مجتمع القرى، وهو طائر لا يأوى في الأرض أبدا... "[2]

وفي حديثه عن سعة بحرا الهند وكبره وتشعبه يقول:" وأما بحر الهند فهو أعظم البحار وأوسعها وأكثرها خيرا ومالا ولا علم لأحد بكيفية اتصاله بالمحيط لعظمة وسعته وخروجه من تحصيل الأفكار، وليس هو كالبحر الغربي، فإن اتصال البحر الغربي بالمحيط ظاهر ويتشعب من هذا البحر خليجان أعظمهما بحر فارس ثم بحر القلزم..."[3]

بعدها نجده ينتقل للحديث عن بحر فارس[- الخليج العربي-] وعن كثرة الخيرات به يقول في هذا الشأن: "أما بحر فارس فيسمى البحر الأخضر وهو شعبة وبحر الهند الأعظم وهو بحر مبارك كثير الخير دائم السلامة وطي الظهر قليل الهيجان بالنسبة إلى غيره قال عبد الله الصيني خص الله بحر فارس بالخيرات الكثيرة، والبركات الغزيرة،

---

[1] أبو القاسم الزياني: الترجمانة الكبرى، ص296.

[2] المصدر نفسه، ص296.

[3] المصدر نفسه ،ص296.

والفوائد والعجائب، والظرف والغرائب، منها مغاص اللؤلؤ الذي يخرج منه الحب البالغ الكبير وربما وقعت الدرة اليتيمة التي لا نظير لها وفي جزائره معادن أنواع اليواقيت والأحجار الملونة النفيسة... "[1] ، ليتحدث بعدها عن بحر القلزم[البحر الأحمر]، إذ يتناول حدوده ومصدره يقول: "وأما بحر القلزم فهو شعبة من بحر الهند جنوبية بلاد البربر أو الحبشة وعلى ساحله الشرقي بلاد العرب وعلى ساحله الغربي بلاد اليمن والقلزم اسم المدينة على ساحله وهو البحر الذي أغرق الله فيه فرعون وهو بحر مظلم وحش لا خير فيه باطنا ولا ظاهرا وفي هذا البحر جزائر كثيرة وغالبها غير مسكونة ولا مسلوكة."[2]

كما تحدث عن بحر الزنج الذي يقول فيه:" فهو بحر الهند بعينه، وبلاد الزنج منه في جانب الجنوب تحت سهيل، وراكب هذا البحر يرى القطب الجنوبي ولا يرى القطب الشمالي ولا بنات نعش، وهو متصل بالبحر المحيط وموجه كالجبال الشواهق، وينخفض كأخفض ما يكون من الأودية وليس زبد مثل سائر البحار وفيه جزائر كثيرة ذوات الشجار وحياض ولكنها ليست بذوات ثمار مثل شجر الأينوس والصندل والساج..."[3]

بعد ذلك ينتقل للحديث عن بحر المغرب فتحدث عن حدوده وغرائبه، كما تحدث عن بحر الخزر فتناول البلاد التي تقع على سواحله كما تحدث عن مناخه وانعدام الخيرات به وكذا كثرة العجائب به ونجده خصص لحديثه هذا حوالي صفحة ونصف، يقول في حديثه عن حدود بحر المغرب:" وأما بحر المغرب فهو بحر الشام وبحر القسطنطينية ويمر ببلاد الجنوب إلى سبته إلى طرابلس المغرب إلى الإسكندرية إلى سواحل الشام إلى

---

[1] أبو القاسم الزياني: الترجمانة الكبرى، ص276.

[2] المصدر نفسه، ص296.

[3] المصدر نفسه، ص296.

أنطاكية..."[1]، لينتقل بعدها للحديث عن بحر الخزر [بحر قزوين] يقول:" وأما بحر الخزر فهو بحر الأتراك وهو في جهة الشمال الشرقية جرجان، وطربشان وعلى شماله بلاد الخزر وغربية الأن وجبال القبق وعلى جنوبه انجير الديلم وهو بحر واسع ولا اتصال له بشيء من البحار وهو بحر صعب خطر المسلك سريع الهلاك شديد الاضطراب والأمواج لا جزر فيه ولا مد وليس فيه شيء من اللآلئ ولا الجواهر..."[2]

بعد حديثه عن البحار نجده ينتقل للحديث عن جزر هذه البحار، وابتدأ حديثه بجزر البحر الأخضر[البحر الأبيض المتوسط] حيث قام بتعداد جزره كما تحدث عن السكان الذين يقطنونها، ومن الجزر التي تحدث عنها وذكرها جزيرة صقلية ومالطة،* مورة،** قبرص،*** منورقة،**** الجزيرة الخضراء***** ...، وغيرها من الجزر الأخرى التي ذكرها.

---

[1] أبو القاسم الزياني: الترجمانة الكبرى،ص296.

[2] أبو القاسم الزياني: الترجمانة الكبرى، ص298.

* مالطة: بلدة بالأندلس، طولها نحو ثلاثين ميلا وهي آهلة، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج5، ص51.

** مورة: حصن بالأندلس من أعمال طليطلة، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج5،ص256.

*** قبرص: هي جزيرة في بحر الروم وبأيديهم دورها مسيرة ستة عشر يوما، ياقوت الحموي: معجم البلدان ج4، ص305.

**** منورقة: هي جزيرة عامرة في شرقي الأندلس قرب ميورقة، ياقوت الحموي: معجم البلدان،ج5، ص251.

***** الجزيرة الخضراء: مدينة مشهورة بالأندلس، وقبالها من البر بر سبتة، وأعمالها متصلة بأعمال سدونة، وهي شرقي سدونة وقبيلة قرطبة، ومدينتها من أشرف المدن وأطيبها أرض، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ص136.

يقول في حديثه عن جزيرة مالطة:" كانت للروم ولم تفتح قط ولا زالت بأيديهم إلى الآن وكم مرة حاصرها آل عثمان فلم يقدر فتحها"[1] ، يقول أيضا في حديثه عن جزيرة صقلية:" وبعدها جزيرة صقلية المشتملة على عشرين مدينة وهي من أعظم جزر البحر وهي أول ما فتح المسلمون بعد فتح إفريقية وقبل فتح الأندلس واستمرت بأيدي المسلمين إلى بعد الثمانمائة من الهجرة واستولى عليها الكفار دمرهم الله."[2] ، ويقول أيضا في حديثه عن جزيرة المورة:" كانت للفرنج وفتحها آل عثمان مشتملة على مدن عديدة وقلع وقرى وعمارة، وإن كانت في الحقيقة متصلة ببر الروم إلا من باب واحد كجزيرة الأندلس وبعدها استردها الفرنج ثم عاود فتحها ملوك آل عثمان بعد الألف ولا زالت بأيديهم بمدنها ورعاياها من الروم تحت الذمة[3] .

وقد خصص الزياني لحديثه عن جزر البحر الأخضر صفحتين، بعدها انتقل للحديث عن جزر البحر الأعظم الغربي وابتدأ حديثه بجزر الواقعة في جهة المغرب الأقصى مثل الجزر الخالدات*،[4] كما تحدث أيضا عن جزيرة الأشبونة.**

---

[1] أبو القاسم الزياني: الترجمانة الكبرى، ص300.

[2] المصدر نفسه، ص300.

[3] المصدر نفسه، ص300.

* جزر الخالدات: تعرف بجزر خط الاستواء وهي مجموعة مرجانية في المحيط الهادئ الأوسط والجنوبي، تتألف من عشر جزر منها: جارفس- باميرا- واشنطن- فلنت- ستاربوك- مالدن- كارولين...، أبو القاسم الزياني: الترجمانة الكبرى، ص301.

[4] جزر الخالدات: هي جزر الكناري، رهام غازي أبو دولة: تاريخ جزر الخالدات، موقع موضوع، 30:13، 25 أكتوبر 2018. https://mawdoo3.com

** الأشبونة: هي مدينة بالأندلس يقال لها لشبونة، وهي متصلة بشنترين قريبة من البحر المحيط يوجد على ساحلها العنبر الفائق، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج1، ص195.

وقادس[*] وغيرهم من الجزر الأخرى التي ذكرها.

يقول في حديثه عن جزر الخالدات:" التي من حساب الإقليم الأول الموالي لخط الإستواء، يسكنها كفار البردقيز ومراكبهم تصل لمراسي السودان، وبه تجارتهم والسفل ومنهم بمقابلة الإقليم الثاني."[1]

وفي حديثه عن جزيرة الأشبونة يقول: "ملاصقة لبر الأندلس وهي دار مملكة لسلطانة البردقيز وكانت بيد المسلمين هي وجزيرة قادس، ولما غلب الكفار على الأندلس، أخدهما من جملته بعد الألف، ثم أخذها من البردقيز[**] سلطان الاسطنبول مرارا، واستردها البردقيز بمنافسة سلطان الانجليز لأنه حليفه."[2]

وقد أفرد الزياني لحديثه هذا حوالي صفحتين.

لينتقل بعد ذلك للحديث عن جزر بحر الهند والسند والصين ومن الجزر التي تحدث عنها وذكرها: جزيرة الورد– القمر[***] – سرانديب– كلة وجزيرة العباد وغيرها من الجزر الأخرى التي ذكرها.

---

[*] قادس: جزيرة في غربي الأندلس تقارب أعمال شذونة، طولها اثنا عشر ميلا، قريبة من ... وبين البحر الأعظم خليج صغير قد حازها إلى البحر عن البر، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج4، ص290.

[1] أبو القاسم الزياني: الترجمانة الكبرى، ص301.

[**] البردقيز: البرتغال، أبو العباس أحمد بن خالد الناصري: الإستقصاء لأخبار دول المغرب بالأقصى، تح: جعفر الناصري ومحمد الناصري، ج4، دط، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1997، ص92.

[2] أبو القاسم الزياني: الترجمانة الكبرى، ص 301.

[***] القمر: جزيرة في بحر الزنج ليس في ذلك البحر جزيرة أكبر منها فيها عدة مدن وملوك كل واحد يخالف الآخر، يوجد في سواحلها العنبر وورق القماري، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4، ص397.

يقول في حديثه عن جزيرة الورد:" لهذه المعجزة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، قال القاضي عياض في الشفان أن بهذه الجزيرة ورد أحمر، مكتوب عليه بقلم القدرة بالبياض، لا إله إلا الله محمد رسول الله، وهذا من خوارق النبوءة ودلائل الرسالة."[1]

ويقول أيضا في حديثه عن جزيرة القمر:" أهلها يصنعون الثياب من الحشيش والحرير والديباج، ولهم مراكب كل مركب منحوت من عود واحد، وكل مركبة تحمل مائتي مقاتل، طولها ستون ذراعا، بالرشاشي."[2]

وقد أفرد الزياني لحديثه حول جزر هذا البحر حوالي ست صفحات وإجمالي حديث الزياني عن البحار وما يخصها في مؤلفه الترجمانة الكبرى هو سبع عشرة صفحة.

[1] أبو القاسم الزياني: الترجمانة الكبرى، ص303.

[2] المصدر نفسه، ص305.

المبحث الثاني: الصورة في الأدب المقارن

المطلب الأول: تعريف الصورة

1- في القرآن الكريم:

جاء ذكر لفظة صورة في القرآن الكريم في العديد من المواضع وبدلالات مختلفة، حيث يقول تبارك وتعالى في سورة آل عمران: "هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم" [سورة آل عمران الآية 06] أراد الله عز وجل في هذه الآية أن يبين لعباده أنه "يخلقهم في أرحام أمهاتهم كما يشاء سواء كان ذكرا أو أنثى، حسن وقبيح".[1]، فكلمة يصوركم في هذه الآية تدل على معنى خلقكم.

ويقول تعالى أيضا في سورة الأعراف: "ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم إلا إبليس لم يكن من الساجدين" [سورة الأعراف الآية 11].

فالله عز وجل "خلق آدم طينا غير مصور ثم صوره أبدع تصويره وأحسن تقويم، وإنّما ذكر بلفظ الجمع تعظيما له لأنه أبو البشر، ثم أمر الملائكة بالسجود لآدم تكريما له ولذريته".[2]

ويقول تعالى أيضا في سورة غافر: "الله الذي جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذالكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين" [سورة غافر الآية 64]

---

[1] محمد علي الصابوني: صفوة التفاسير، المجلد 1، ط4، دار القرآن الكريم، بيروت، لبنان، 1981، ص184.

[2] المرجع نفسه، ص184.

فقوله تعالى في الآية الكريمة "وصوركم فأحسن صوركم أي صوركم أحسن تصوير، وخلقكم في أحسن الأشكال، متناسبي الأعضاء ولم يجعلكم كالبهائم منكوسين تمشون على أربع".[1]

ويقول تعالى أيضا في سورة الحشر: "هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم" [سورة الحشر الآية 24].

وقوله تعالى في الآية "المصور" أي المبدع الأشكال على حسب إرادته".[2]

ويقول تعالى: أيضا في موضع آخر في سورة التغابن: "خلق السموات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير" [سورة التغابن الآية 03]

فقوله وصوركم فأحسن صوركم تعني "خلقكم في أحسن صورة وأجمل شكل، فأتقن وأحكم خلقكم وتصويركم".[3]

نستنتج مما سبق أن مصطلح الصورة في القرآن الكريم يضم العديد من الدلالات التي تختلف باختلاف المناسبة التي جاءت فيها الآية وسياق الكلام.

---

[1] محمد علي الصابوني: صفوة التفاسير، المجلد 3، ص108.

[2] المرجع نفسه، ص357.

[3] المرجع نفسه، ص 391.

2- لغة:

جاء في لسان العرب لابن منظور في مادة صور"صور: في أسماء الله تعالى: المصور وهو الذي صور جميع الموجودات ورتبها فأعطى كل شيء منها صورة خاصة وهيئة مفردة يتميز بها على اختلافها وكثرتها، والصورة ترد في كلام العرب على ظاهرها وعلى معنى حقيقة الشيء وهيئته وعلى معنى صنعته، يقال: صورة الفعل كذا وكذا أي هيئته، وصورة الأمر كذا وكذا أي صنعته".[1]

فالصورة عند ابن منظور هي الهيئة والصفة.

ويعرفها الزبيدي في تاج العروس.

"صوّر: صورةٌ، بالضم: الشكل والهيئة، والحقيقة، والصفة (وقد صوره)، صورة حسنة، (فتصور)، تشكل وتستعمل الصورة بمعنى النوع والصفة".[2]

وجاء في تعريفها في معجم المنجد في اللغة والأعلام.

"صور: جعل له صورة وشكل ورسمه ونقشه.

تصور الشيء: توهم صورته وتخيله.

---

[1] ابن منظور: لسان العرب، تح: عامر أحمد حيدر، المجلد 3، مادة صور، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان 2005، ص441-442.

[2] الزبيدي: تاج العروس، المجلد6، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2007، ص187-188.

الصورة ج صورٌ وصِور وصُور: الشكل كل ما يصوره الصفة يقال صورة الأمر كذا أي صفته".[1]

من خلال التعريفات السابقة نستنتج أن الصورة تدل على حقيقة الشيء، وشكله وصفته وكذا هيئته ونوعه.

3- اصطلاحا:

يقول سعيد علوش في تعريفه للصورة "تمثيل بصري لموضوع ما، وتعتبر المعارضة بين (الصورة) والمفهوم عند باشلار أساسية، لأنها تسمح بفهم تنظيم الانعكاس، عبر وجهين فالصورة إنتاج للخيال المحض، وهي بذلك تبدع اللغة، وتعارض المجاز الذي لا يخرج اللغة عن دورها الاستعمالي، ويعد المجاز المصطنع إراديا، (صورة خاطئة)، تلحق بالمفهوم أما الصورة الحقيقية، فهي الأصلية والمنتجة، ولا تعتبر تمثيلية، بشكل من الأشكال".[2] في حين تتحول الصورة عند الأدبي إلى: "تشبيه أو استعارة، وهي التي تدعى الصورة البيانية، وتعتمد على الخيال والشعور، كما تعتمد على العقل والثقافة".[3]

إن النقاد قاموا بربط الصورة بمفهومها البلاغي والبياني لما لها من أهمية كبيرة وتوظيف كبير في النصوص الأدبية.

---

[1] المنجد في اللغة والأعلام، ط40، دار المشرق، بيروت، لبنان، 2003، ص440.

[2] سعيد علوش: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1985، ص136.

[3] محمد التنوجي: المعجم المفضل في الأدب، ج1، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1992، ص591.

ويذهب فيصل الأحمر في حديثه عن أهمية الصورة وحاجتنا إليها في سائر مجالات مذهبا يعطيها أهمية كبيرة يقول: "أبرز فن يغمرنا في حياتنا اليومية، إذ لا يخلو أي فن منها فالمسرح والسينما والإشهار كلها فنون تعتمد على الصورة كعنصر أساسي إلى جانب بقية العناصر الأخرى".[1] إذ تختلف وتتعد المواضع التي استعملت فيها الصورة، وفي كل مرة تأخذ مفهوم خاص بالمجال الذي استخدمت فيه.

وهناك علم يهتم بدراسة الصورة في الأدب المقارن هو علم الصوراتية أو الصورولوجيا.

المطلب الثاني: مفهوم الصورولوجيا

تعد الصورولوجيا مبحثا من مباحث الأدب المقارن ويعرفها دانييل هنري باجو بأنها: "تعبير أدبي أو غير أدبي، عن انزياح ذي مغزى بين منظومتين عن الواقع الثقافي، إننا نجد مع مفهوم الانزياح، البعد الأجنبي الذي يؤسس كل فكر مقارني، في علم الاجتماع، يصبح هذا الانزياح اختلاف طبقات اجتماعية أو أصول، أو فضاءات جغرافية –ثقافية".[2] فهي تلزم تفاعل جانبين ينتميان إلى ثقافتين مختلفتين.

وتقول ماجدة حمود في حديثها عنها: "هي تعبير أدبي يشير إلى تباعد في دلالة بين نظامين ثقافيين ينتميان إلى مكانين مختلفين".[3]

وهي من وجهة نظر وظيفة أظهرها دانييل هنري باجو: "فعل ثقافة، وممارسة إنسانية، (متعلقة بالإنسان) للتعبير عن الهوية والغيرية في الوقت نفسه (واللباس والمطبخ لغات رمزية أخرى) ضمن هذا المجال للصورة مكانتها

---

[1] فيصل لحمر: معجم السيميائيات، ط1، الدار العربية للعلوم ناشرون، 2010، ص118.

[2] دانييل هنري باجو: الأدب العام المقارن، تر: غسان السيد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ص91.

[3] ماجدة حمود: مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن "دراسة"، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ص110.

ضمن العالم الرمزي الذي نسميه (خيالا)، والذي سمي خيالا اجتماعيا لأنه لا ينفصل عن تنظيم اجتماعي وثقافي".[1] فالصورة فعل ثقافي يتعلق بالإنسان وهي تعبير عن هويته وهوية الغير.

ومن تعريفات الصورولوجيا البسيطة والواضحة تعريف الباحث فيصل لحمر الذي يقول: "اصطلاح، ظهر في الأدب المقارن، ليشير إلى دراسة صورة شعب عند آخر، باعتبارها صورة خاطئة".[2]

أما عن مجال اهتمامها فهي بحسب بعض الباحثين: "تهتم بدراسة وتحليل ورصد الصورة الثقافية التي تكونها الشعوب عن بعضها البعض، في سياق شروط موضوعية معينة".[3] والصورة غير ثابتة "فالشخص يتغير دائما، يتغير في شكله، كما يتغير في باطنه، لأنه يتطور مع نمط الحياة، فهو يغير ملابسه وطريقته في الحياة اليومية، ويتغير كذلك في باطنه، فيتخلى عن أفكار، ويؤمن بأفكار أخرى جديدة أو قديمة لم يكن يؤمن بها لأنه يعيش وينمو ويتطور، فالإنسان غير جامد، وعدم الجمود يعني الحركة والتطور، أي التغير، وقد يكون التغير سريعا وقد يكون بطيئا".[4]

فالصورة إذن تختلف وتتباين داخل الشعب والأشخاص كذلك على اختلاف الحياة اليومية التي يعيشونها.

---

[1] دانييل هنري باجو: الأدب العام المقارن، ص93.

[2] فيصل لحمر: معجم السميائيات، ص118.

[3] زهرة مزوني: دراسة الصورة في الأدب المقارن، مجلة الباحث، العدد16، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، الجزائر، ص76.

[4] عبد المجيد حنون: صورة الفرنسي والفرنسية في الرواية المغاربية، ط2، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، قسنطينة، الجزائر، 2013، ص68-69.

كما تعرف أيضا بأنها: "مجموعة الدراسات الأدب المقارن المخصصة لدراسة تمثلات الأجنبي، ولها موضوعان متميزان للدراسة، سرود الأسفار (الكتابات الرحلية) والأعمال الروائية التي تتناول الأجنبي".[1]

بالطبع تعد الرحلات والروايات البيئة الأدبية الأبرز لتشكل معالم الصورة لكن هناك فنون أدبية أخرى يمكن أن تشكل مصدرا لها كالشعر والمسرح... وتظل مصادر الصورة متنوعة وكثيرة، وذلك ما سنقف عليه في العنوان التالي.

المطلب الثالث: مصادر الصورة

تقول ماجدة حمود في هذا الموضوع: "كثيرا ما يتم تلقي صورة الآخر عبر ترجمة النص الأجنبي وتوضيحه بمقدمات، عبر مقالات نقدية ودراسات أدبية كتبت للدوريات والصحافة، تتناول الآداب الأجنبية، وكذلك يتم تلقيها عبر الإخراج السينمائي والمعارض الفنية، وعبر أدب الرحلات وعبر الإبداع الأدبي الذي يجسد الآخر بواسطة الخيال خاصة فن القصة والمسرح ونادرا ما تظهر في فن الشعر) مع الأخذ بعين الاعتبار الشروط الاجتماعية الثقافية التي يجري ضمنها التلقي".[2]

ومن الوسائل المساعدة على تشكيل الصور نذكر الحروب مثل ما يقول عبد المجيد حنون: "وأيضا فرض الوجود أو الاحتلال، حيث أن فرنسا فرضت وجودها على المغرب العربي، وبسبب احتكاكهم اليومي بها كونوا

---

[1] عبد الرحمن بوعلي: الصورولوجيا وإشكالية التمثلات الأدبية، المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد12، العدد2، أفريل 2020، جامعة الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، ص80.

[2] ماجدة حمود: مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن، ص114.

عنها صورة مبنية على المعايشة اليومية والتجربة والممارسة".[1] وتقول زهرة مزوني نقلا عن بندكت روت في نفس الصدد: "أن الصورة تتولد في غالب الأحيان من أحكام جاهزة تحمل بين طياتها تشويه للقيم من خلال الرحلات والإرتسامات والشفوي والجرائد والإذاعة والتلفزة والأفلام السينمائية والرسوم المتحركة...". [2]

وتقول أيضا: "ومصادر صورة الأجنبي قد لا تكون التجربة أو المعرفة المباشرة عبر الرحلات والأسفار، فكثيرا ما ترجع تلك الصورة إلى مطالعات الأديب أو إلى أحاديث سمعها حول البلد الأجنبي فالأديب الألماني غوته لم تطأ قدماه الشرق، وكان قد عرف الشرق العربي، وكتب عنه من خلال قراءة ألف ليلى وليلى والشعر العربي والقرآن الكريم، وكتب التاريخ".[3]

إذا فالمصادر التي تعتمدها الصورة في التشكل هي: المشاهدة، المعايشة، السماع والإخبار، وكذا هناك النقل عن الكتب.

---

[1] عبد المجيد حنون: صورة الفرنسي والفرنسية في الرواية المغربية، ص67.

[2] زهرة مزوني: دراسة الصورة في الأدب المقارن، ص79.

[3] المرجع نفسه، ص80.

المطلب الرابع: عناصر تكوين الصورة الأدبية الآخر

من أهم العناصر المكونة للصورة الأدبية للآخر نجد:

أ- الكلمات:

تعد الكلمات عنصرا مهما من عناصر تشكل صورة الآخر وتعرف بأنها "حقول معجمية تشكل مفاهيم ومشاعر مشتركة من حيث المبدأ بين الكاتب وجمهوره، لذلك علينا أن نميز بين الكلمات النابعة من البلد الناظر(أي الدارس) التي تفيد في تعريف البلد المنظور أي المدروس والكلمات التي أخذت من لغة البلد المنظور ونقلت حول ترجمة إلى لغة البلد الناظر وإلى فضائه الثقافي وإلى نصوصه وخياله أيضا".[1]

فالكلمة هي عنصر مهم في تكوين صورة الآخر ونقلها للقراء، لذلك وجب العناية بها، كما أنها تهدف إلى نقل مشاعر الكاتب، وعلى الكاتب أن يكون على دراية ولديه القدرة للتمييز بين المفردات التي تنتمي إلى مدينته والمفردات التي تنتمي إلى البلد الآخر ليستطيع نقل ثقافته وثقافة البلد الآخر بطريقة سليمة.

ب- الأسطورة والخيال والنمط:

من العناصر المشكلة والمكونة للصورة السردية للآخر الخيال والذي يعرفه سعيد علوش بأنه: "القدرة على تشكيل صور الأشياء والأشخاص".[2] كما أنه "ملكة من ملكات العقل، لا تتهيأ لأي إنسان، وبها يستطيع

---

[1] ماجدة حمود: مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن، ص115.

[2] سعيد علوش: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، ص87.

الأديب أن يخلق صورا تنعم على النص صورا جذابة، وتمنح للقارئ واسطة لتوسيع آفاقه، والخيال ضروري للإنسان ولا غنية له عنه، وهو كالنهر الجميل المتدفق في صدر الإنسانية".[1]

فالخيال هو ملكة لا يملكها كل الناس، وهي تمكن الكاتب وتساعده على جعل نصوصه جذابة للقراء وتجعلهم يتشوقون لمعرفة الإشكالية والأحداث القادمة فيه.

تقول ماجدة حمود في حديثها عن الخيال: "تتأثر صورة الآخر بحلم اليقظة الذي يراودنا حوله وبذلك بات الخيال الاجتماعي مشكلا آفق البحث عن صورة الآخر، ومن هنا نجد الخيال يشكل جزءا لا يتجزأ من التاريخ بالمعنى الوقائعي والسياسي والاجتماعي".[2]

فماجدة حمود هنا ترى أن صورة الآخر تظهر بواسطة أحلام اليقظة، وتعتبر الخيال جزءا مهما لا يغيب عن الساحة الاجتماعية والسياسية، وكذا في الجانب الوقائعي والتاريخي.

وتتدخل في تشكيل الصورة السردية العديد من المظاهر منها: "ظاهرة العدو الموروث والاستعمار ونتائجه الإيديولوجية والثقافية العنصرية والتغريب الفني والأدبي، كما نجدها تتدخل في مضمون الخيال الاجتماعي في لحظة تاريخية معينة لذلك من الواضح ارتباط الخيال بماضي المجتمع وصيرورته".[3] حيث تتشكل عند الأشخاص صور موروثة عن المجتمع وعن الآخر من خلال الاستعمار وما يحمله من أفكار هادمة للمجتمع والحياة الاجتماعية والثقافية.

---

[1] محمد التونجي: المعجم المفضل في الأدب، ص419.

[2] ماجدة حمود: مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن، ص115.

[3] المرجع نفسه: ص115.

بعد حديثنا عن الخيال ودوره في تشكيل الصورة السردية، ننتقل للحديث عن الأسطورة، وهي قديمة الظهور والنشأة حيث عرفها الإنسان مند العصور القديمة وباختلاف العصور وتطورها تطورت هي الأخرى وقد عرفتها ماجدة حمود بأنها: " معرفة وسلطة وتاريخ الجماعة، وهي قصة أخلاقية تقوي تماسك الجماعة التي أنتجتها لذلك نجد الصورة موازية للأسطورة، إذ لو قارنا بين اللغة الرمزية واللغة الأسطورية نستطيع أن نتبين أن الصورة مثل الأسطورة تمتلك القدرة على الرواية، كما تمتلك القدرة على إحياء قصة ما وجعلها نموذجية، تتحرك في عصرنا عبر رؤية الماضي".[1] وهي هنا ترى بأن الأسطورة فعل جماعي، كما تعتبرها تاريخ للأمم.

إضافة إلى الأسطورة والخيال هناك عناصر مشوهة لها منها شيوع النمط وفيه تقول ماجدة حمود: "عندما يشيع النمط في الصورة تختزل إلى رسالة واحدة وجوهرية، هي بالنتيجة صورة أولى وأخيرة للآخر أي صورة جامدة، تصلح لكل زمان دون أن يطرأ عليها أي تغيير، وبذلك يسبتعد النمط عن الصورة الحقيقية، ليفسح المجال للصورة المشوهة، التي تعتمد النظرة الثابتة، وتجسد زمنا ماضيا متوقفا".[2]

فهي ترى أن النمط يجعل الصورة ثابتة غير قابلة للتغيير مهما تغير الزمن، وهذا ما يؤذي إلى تشوه الصورة وابتعادها عن الحقيقة.

---

[1] ماجدة حمود: مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن، ص116.

[2] المرجع نفسه، ص115-116.

ج- الإطار الزماني والمكاني:

يمتاز الإطار الزمني بأهمية كبيرة ضمن النص الأدبي، وهذا للدور الكبير الذي يلعبه في تركيب النص، ويجب التركيز على التواريخ والأيام السنوات، والانتباه على كل ما يمكن أن يظهر كأسطرة للزمن زمن الآخر، والزمن الذي تتحرك في العلاقات بين الأنا والآخر".[1]

فالزمن في النص يبين كيف تكون وتسير العلاقة بين الأنا والآخر، وتقول ماجدة حمود في حديثها عن الزمن: "يجب الانتباه إلى الفضاء الزماني إذ من المفيد ملاحظة الإشارات المتسلسلة تاريخيا، لأن التواريخ التي يقدمها النص تساعد على إعطاء صورة دقيقة للأجنبي".[2]

فللزمن دور فعال في النص وذلك لأنه يمنحه بعدا تاريخيا يساهم في التعرف على الآخر بصورة دقيقة، وتقول أيضا: "يساهم الزمن في تقديم الأجنبي وجعله يشارك في الزمن الأسطوري خارج كل حدود دقيقة، الأمر الذي يعني ابتعادا عن الزمن المتتابع "الخطى" للتاريخ السياسي الذي يسترخي اتجاه واحد لا يتغير ولا يتوقف".[3] وهذا يعني أنه يجب الانتباه إلى الفضاء الزمني وذلك لأنه يساهم في تقديم الآخر ويسير معه في اتجاه وخط واحد.

كما يساهم المكان في تشكيل الصور السردية في الرواية، كما أنه يمكن الوصول إلى الحقائق التي تقدمها النصوص السردية، من خلال "دراسة إجراءات تنظيم صورة الأجنبي أو نحاول إعادة تنظيمها مثل طريقة التحديد

---

[1] دانييل هنري باجو: الأدب العام المقارن، ص102-103.

[2] ماجدة حمود: مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن، ص116-117.

[3] المرج نفسه، ص117.

الفضائي والتفرعات الثنائية الناتجة عن حلم اليقظة عن الفضاء الأجنبي الأعلى مقابل الأدنى، الحركات المتصاعدة مقابل حركات السقوط والانهيار".[1]

كما أنها تشير إلى "وجوب الانتباه إلى كل ما يجعل الفضاء الخارجي مماثلا للفضاء الداخلي (الشخصية، أنا الراوي) خاصة حين يستطيع الفضاء الأجنبي أن يعيد إنتاج مشهد عقلي أو يعطيه دلالة تساعد على نسج علاقات بين الفضاء الجغرافي والفضاء النفسي على المستوى المجازي على الأقل".[2]

للعمل الأدبي نوعان من الفضاءات: فضاء جغرافي وآخر نفسي، يعني الأول بالموضع الحقيقي، في حين أن الثاني له علاقة بالجانب التخيلي.

ومن بين الأمثلة المتعددة للفضاء المكاني ومساهمته في تكوين الصور السردية تضع ماجدة حمود نماذج لقراءة الإطار المكاني، من حيث هو مكون هام، "فدراسة الأماكن المفضلة والمناطق المعطاة أهمية أي قيمة إيجابية او سلبية وكل ما يسمح بترميز الفضاء وكل ما يطلق عليه الآخرون تقديس الفضاء".[3]وهذا يعني أن المناطق والأماكن المذكورة في النص السردي لها قيمة إيجابية، وقد تكون سلبية وجب دراستها وعدم إهمالها كونها عامل مساعد في معرفة الآخر.

---

[1] ماجدة حمود: مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن، ص116.

[2] المرجع نفسه، ص116.

[3] المرجع نفسه، ص116.

د- السيناريو:

من العناصر المكونة لصورة الآخر نجد السيناريو والذي يعرف بأنه "مصطلح إيتالي حديث يقدم السمات الخاصة للشخصيات، والمشاهد والمواقف".[1]

وتقول ماجدة حمود في حديثها عن السيناريو باعتباره مكونا من مكونات صورة الآخر هو "توضيح كامل لحوار بين ثقافيين من خلالها يقدم الأجنبي عبر تشكيل جمالي وثقافي أي يقدم عبر الصورة السيناريو".[2]

ويقول هنري باجو متحدثا عن الفكرة نفسها فيقول: "إنها تاريخ وضع في نص انطلاقا من حوار بين ثقافتين، وأدبين وسلسلتين من النصوص...مع كلمات رئيسية، كلمات استيهامية، وأوضاع معقلنة إلى حد ما، وطقوسية، ومتتليات وموضوعات متوقعة "مبرمجة" لأنها تستطيع أن توجد بصورة مفهرسة إلى حد ما ومترسبة ضمن الثقافة الناظرة، وضمن خيال هذه الثقافة".[3]

فهو هنا يرى بأن الصورة لم تعد عبارة عن شبكات معجمية بل أصبحت تاريخ يتشكل عن طريق التناص بين ثقافتين مختلفتين.

---

[1] محمد التنوجي: المعجم المفضل في الأدب، ص539.

[2] ماجدة حمود: مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن، ص117-118.

[3] دانييل هنري باجو: الأدب العام المقارن، ص105.

هـ- العلاقات الاجتماعية:

من بين أهم العناصر المشكلة والمكونة للصورة في النص الأدبي، نجد العلاقات الاجتماعية والتي تقول ماجدة حمود في شأنها: "العناصر التي تتكثف فيها تعبيرات الآخر والسمات والحركة والحديث والعلاقات الاجتماعية والعناصر التي تتعدى التعريف البسيط حاملة دلالة خاصة ضمن آلية النص".[1]

حيث أن هذه العناصر تحمل دلالات تعبر عن العلاقات بين الشخوص كما تعد العلاقات الاجتماعية داخل النص الأدبي مفيدة من أجل دراسة العلاقات الذكرية والأنثوية ضمن الانتساب إلى ثقافات متنوعة وقد أوردت ماجدة حمود مثال عن ذلك بالرجل العربي الذي يقيم علاقة مع المرأة الغربية أكثر من المرأة العربية مع الرجل الغربي.

فالإنسان في حياته يقوم بالعديد من العلاقات كعلاقات التنافر والتجاذب بين الذكر والأنثى التي تساهم في تكوين الصورة في النصوص الأدبية.

و- الثنائيات المتناقضة:

ومن العناصر المشكلة للصورة في النص الأدبي نجد الثنائيات المتناقضة التي تحمل "على دمج الطبيعة والثقافة مثل متوحش مقابل متحضر، وبربري مقابل مثقف وإنسان مقابل حيوان ورجل مقابل امرأة وكائن متفوق مقابل كائن ضعيف".[2] فمن خلال هذه الثنائيات نستطيع التمييز بين الفروقات والتمايز الحاصل بين الأنا والآخر.

---

[1] ماجدة حمود: مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن، ص117.

[2] المرجع نفسه، ص117.

ي- فهرس الصور والأفكار:

من العناصر المكونة للصورة في النصوص الأدبية نجد المعطيات التاريخية التي "تعني الأخبار ذات الطبيعة المزدوجة (سياسية واقتصادية) كما تعني خطوط القوى التي تتحكم بالثقافة في لحظة معينة، تستطيع الدراسة المعجمية للصورة الكشف عن الدلالة الاجتماعية والثقافية للنص، كما تستطيع الدراسة المعجمية للصورة الكشف عن الدلالة النصية".[1]

فالنصوص السردية تقدم معطيات تاريخية، يمكن من خلالها معرفة الرابط بين النصوص السردية والواقع، أي أن العلاقة بينهما هي مرآة لكشف حقيقة الأحداث، وتتبعها يكون من خلال هذا الربط الإجباري بين الأدب والثقافة المحلية".[2]

فالأدب عن طريق الاستعانة بالمعطيات التاريخية التي يقدمها النص الأدبي يستطيع فهم دلالته من تشكيله، كما أن الأدب يسعى إلى تقديم صورة الأجنبي وتداخله مع الثقافة المحلية، عن طريق الاستعانة بالمعطيات التاريخية.

فما يقدمه المؤرخ من أحداث حقيقية، وربطها بالأدب والأحداث القائمة في النص الأدبي، وبهذا يتم "فهم النص ووظيفة الصورة التي يقدمها عبر دورة من خلال التاريخ خاصة تاريخ العقليات، لذلك يعرف التاريخ بوصفه

---

[1] ماجدة حمود: مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن، ص118.

[2] المرجع نفسه، ص118.

دراسة التأملات والعلاقات الجدلية بين الشروط الموضوعية لحياة الناس التي يعيشونها والطريقة التي يروي بها هذه الحياة".[1]

إن السياقات الخارجية للنص الأدبي تساعد الباحث في فهم الأحداث والحقائق والعلاقات الاجتماعية والسياسية، بالرغم من كونها علاقات جدلية.

ويشير هنري باجو إلى أن الصور المرسومة بالكلمات والألفاظ المعبرة فيقول: "فمعجم الصور يمثل الأداة المفهومية والشعورية لجيل أو عدة أجيال أو لطبقة اجتماعية معينة او مشتركا بين عدة عناصر اجتماعية وثقافية تحمل آراء مختلفة".[2]

فالمعجم المصور قد يختلف من فرد إلى فرد، ومن جيل إلى جيل، ومن مجتمع لآخر، وهو ما يدفعنا إلى الحديث عن تاريخ الأفكار والمقصود هو "تاريخ كلمات وصور، تعيد مثل هذه الكلمة مبدئيا إلى خيار ديني وسياسي وفلسفي مع آثار جمعية قابلة للتبدل".[3] فهذه الألفاظ والكلمات قابلة للتحول والتغير، فقد تملك كلمة معنى معين وتستخدم في صورة مختلفة بمعان متشعبة.

كما " يمكن لدراسة الصورة أن تكون المساعد الفعال لتاريخ الأفكار إلى نقطة معينة، لأن الأمر لا يتعلق بكشف تصورات أو مفهومات ضمن منظومات فلسفية أو أساسية، ولكن بأفكار ومشاعر داخل جماعات

---

[1] ماجدة حمود: مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن، ص118.

[2] دانييل هنري: الأدب العام المقارن، ص99.

[3] المرجع نفسه، ص99.

وعائلات ذات رأي ضمن محيطات أكثر حركة".[1] يعد المعطى التاريخي مساهما مهما في دراسة الصورة وذلك عن طريق البحث داخل الجماعات المكونة له.

المطلب الخامس: حالات فهم الآخر وقراءته

1- الحالة الأولى "التشويه السلبي" -الحالة الذاتية-:

تقول ماجدة حمود في هذا الصدد "في حالة العداء للآخر حيث تؤذي العلاقات العدائية بين الشعوب إلى تكوين صورة سلبية عن الآخر (المعادي) نظرا للمشاعر العدائية وسوء الفهم، لذلك لن يسمح بسماع صوت الآخر المعادي، فيبرز الواقع الثقافي الأجنبي في مرتبة أدنى من الثقافة المحلية، وبذلك نواجه علاقات وصور سلبية يمكن أن ندعوها بالتشويه السلبي".[2]

في هذه الحالة فإن الكاتب لا يترك صورة سلبية إلا ويقوم بإلصاقها بالأجنبي أو الآخر، ويعتبر الواقع الأجنبي متدنيا مقابل تفوق الثقافة الأصلية، ويمكن تسمية هذه الحالة بالتشويه السلبي لأن أصحاب هذا الاتجاه لا يرون في الطرف الآخر إلا مجموعة من السلبيات وقد أعطت ماجدة حمود مثالا عن هذه الحالة وهو صورة الأوروبي (المستعمر) في الأدب العربي مشوهة في كثير من الأحيان (إنه إنسان مادي، غير أخلاقي...)

وتتمثل وظيفة صورة الآخر في هذه الحالة في إثارة مشاعر العداء اتجاه الآخر ومشاعر التضامن تجاه الذات أو الأنا.

---

[1] دانييل هنري: الأدب العام المقارن، ص99.

[2] ماجدة حمود: مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن، ص120.

2- الحالة الثانية: "التشويه الإيجابي"

وتقول ماجدة حمود في حديثها عن هذه الحالة: "يرى فيها الكاتب أو الجماعة الواقع الثقافي الأجنبي متفوقا بصورة مطلقة على الثقافة الوطنية الأصلية، لذلك نجدها على نقيض الحالة الأولى تعد نفسها في مرتبة أدنى، فيترافق التفضيل الإيجابي الأجنبي مع عقد نقص تعاني منها الذات تجاه الثقافة يعانون من حالة من الهوس والانبهار بالآخر، وبذلك يقدم الوهم في صورة الأجنبي على حساب الصورة الحقيقية له، مما يمكننا أن ندعو هذا التشويه بالتشويه الإيجابي".[1]

وهذه الحالة هي عكس الحالة الأولى فالكاتب فيها يرى الواقع الأجنبي أفضل ومتفوقا على الثقافة الوطنية، حيث يرى بأنها أدنى مرتبة منه، وفي هذه الحالة نلاحظ انبهار الكاتب أو الناظر بالآخر، إلى درجة أنه ينفي عنه كل النقائص وتسمى هذه الحالة بالتشويه الإيجابي، وقد أعطت ماجدة حمود مثالا عن هذه الحالة بانبهار بعض الكتاب العرب بالنموذج الغربي للحياة (حرية، ديمقراطية...) وتمجيدهم للحضارة الغربية متجاهلين سلبياتها ومشاكلها، وعدم تبنيهم لأي مواقف نقدية ضدهاّ، رغم أن العرب لا يزالون يعانون من النكبات التي سببتها نزعة الغرب العدوانية تجاههم.

3- الحالة الثالثة: "التسامح" -الحالة الموضوعية-

تقول ماجدة حمود "تنطلق دراسة الصورة من رؤية متوازية للذات والآخر، لذا نجد التسامح هو الحالة الوحيدة للتبادل الحقيقي، إذ يطور تقويم الأجنبي وإعادة تفسيره عبر رؤية موضوعية، تنظر للآخر باعتباره ندًا،

---

[1] ماجدة حمود: مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن، ص121.

فينتفي الهوس والانبهار... والرهاب)، وبذلك يعتبر التسامح طريقا صعبا يمر عبر الاعتراف بالآخر حيث تتعايش الأنا مع الآخر، وتراه ندًا غير مختلف".[1]

وفي هذه الحالة ينظر إلى الواقع الأجنبي ويحكم عليه بصورة إيجابية ويعتبر التسامح الحالة الوحيدة للتبادل الحقيقي والثنائي كما أن التسامح يحاول فرض الطريق الصعب، الذي يمر عبر الاعتراف بالآخر الذي يعيش إلى جانب الأنا، وفي مقابلتها.

"كما أن التسامح يحتاج إلى نضج فكري يقوم على التأمل والتمثل لا على استيراد الأفكار والمعطيات الأجنبية وبالتالي يحتاج إلى حوار دائم بين الذات والآخر بعيدا عن العقد النفسية (الهوس، الرهاب)".[2]

والتسامح هي الحالة الوحيدة لتبادل الحوار مع الآخر والتي يمكن من خلالها بناء علاقة إيجابية تقوم على الأخذ والعطاء بعيدا عن الهوس والرهاب.

---

[1] ماجدة حمود: مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن، ص121.

[2] المرجع نفسه، ص121.

الفصل الثاني

صورة البحر في رحلات المسعودي– البكري– الغرناطي

المبحث الأول: صورة البحر في رحلة لبحر مروج الذهب ومعادن الجوهر"للمسعودي"

المطلب الأول: مصادر صورة البحر

المطلب الثاني: عناصر تشكل صورة البحر

المطلب الثالث: حالات فهم البحر وقراءاته

المبحث الثاني: صورة البحر في رحلة المسالك والممالك "للبكري"

المطلب الأول: مصادر صور البحر

المطلب الثاني: عناصر تشكل صورة البحر

المطلب الثالث: حالات فهم البحر وقراءته

المبحث الثالث: صورة البحر في رحلة تحفة الألباب ونخبة الإعجاب

المطلب الأول: مصادر صورة البحر

المطلب الثاني: عناصر تشكل صورة البحر

المطلب الثالث: حالات فهم البحر قراءاته

المبحث الأول: صورة البحر في رحلة لبحر مروج الذهب ومعادن الجوهر"للمسعودي"

المطلب الأول: مصادر صورة البحر

تنوعت واختلفت المصادر التي اعتمدها الرحالة العرب في تشكيليهم لصورة البحر، ورصد جوانبها المختلفة، ومن هذه المصادر المشاهدة، والمعايشة، السماع والإخبار، النقل عن الكتب.

1– المشاهدة:

اعتمد الرحالة العرب على المشاهدة في توثيق أخبارهم ومعلوماتهم وتصويرهم للأماكن التي وصلوا إليها، وهي تعد من أكثر المصادر أهمية من ناحية مصداقية الخبر، والرحالة في هذا الحالة يكون شاهدا على الأحداث، ومن الأمثلة على ذلك ما يذكره المسعودي في مشاهداته حيث يتحدث عن ركوبه للبحر الحبشي يقول:"ويقطع هذا البحر السيرافيون، وقد ركبت أنا هذا البحر من مدينة سنجار، ومن بلاد عمان و (سنجار وقصبة بلاد عمان) مع جماعة من نواخذة السيرافيين، وهم أرباب المراكب".[1]

ويقول أيضا حول مشاهداته في مدينة بلخ[*]:" وقد رأيت بمدينة بلخ شيحا جميلا ذا رأي وفهم وقد دخل الصين مرارا كثيرة ولم يركب البحر النوشادر إلى أرض التبث والصين ببلاد خراسان ...."[2]

---

[1] المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ص101.

[*] بلخ: مدينة مشهورة بخراسان، ياقوت الحوي، معجم البلدان، ج1، ص479.

[2] المسعودي: موج الذهب ومعادن الجوهر، ص122.

ومن مشاهداته أيضا في بلاد كنباية حول تنازع الناس في المد والجزر يقول:" ورأيت مثل ذلك ببلاد كنباية من أرض الهند، وهي المدينة التي تضاف إليها النعال الكنبائية الصرارة وفيها تعمل وفيها يليها مثل مدينة سندارة وسريارة، وكان دخولي إليها في سنة ثلاث وثلاثمائة، والملك يومئذ بانيا، وكان برهمانيا...، وبين مدينة كنباية وبين البحر الذي يأخذ منه هذا الخليج يومان، أو أقل من ذلك فيجزرا لماء عن الخليج حيث يبدو الرمل قعر لخليج ويبقى في وسطه القليل من الماء، فرأيت الكلب على هذا الرمل الذي يصب عنه الماء وقعر الخليج قد صار كالصحراء"[1].

2– المعايشة:

يعد التعايش مصدرا مهما من مصادر تكون صورة الأخر في الرحلات العربية، وله صور عديدة في الكتابات الرحلية، فنجد مثلا المسعودي يتحدث عن ركوبه للبحر الحبشي (بحر الهند) فيقول:" ...وقد ركبت أنا هذا البحر من مدينة سنجار، ومن بلاد عمان (وسنجار قصبة بلاد عمان) مع جماعة من نواخذة السيرافيين، وهم أرباب المراكب،...، وأخرا مرة ركبت فيه سنة أربع وثلا مئة من جزيرة قنبلو إلى مدينة عمان، وذلك في مركب أحمد وعبد الصمد أخوي عبد الرحيم بن جعفر السيرافي، بميكان وهي محلة في سيراف) ...[2] فيقول في الشأن نفسه " وكان ركوبي فيه أخيرا والأمير على عمان أحمد بن هلال أبن أخت القيتال، وقد ركبت عدت من

[1] المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ص 91- 92.

[2] المصدر نفسه، ص84- 85.

البحار كبحر الصين والروم والجزر والقلزم واليمن، وأصابني فيها من الأهوال مالا أحصية كثرة، فلم أشاهد أهول من بحر الزنج[1].

ويقول أيضا في ركوبه لبحر الخزر "وقد ركبت فيه من أبسكون، وهو ساحل جرجان، إلى بلاد طبرستان وغيرها".[2]

3– السماع والأخبار:

إن كتب الرحلات غنية بالكثير من الحوادث التي نقلها الرحالة عن غيرهم، ويعد السماع والإخبار عن المصادر التي اعتمدوا عليها في تكشيل صورة الآخر وتعتبر رحلة "المسعودي "" مروج الذهب ومعادن الجوهر" رحلة غنية بهذا المصدر من مصادر تشكيل صورة الآخر، فنجده يتحدث مثلا عن الأحاديث التي تناقلت بين الناس حول المد والجزر يقول: "فمنهم من ذهب إلى أن ذلك من القمر لأنه مجانس للماء، وهو يسخنه فينبسط، وشبهوا ذلك بالنار إذا أسخنت ما في القدر وأغلته، وإن الماء يكون فيها على قدر النصف أو الثلثين، فإذا غلا ذلك الماء انبسط في القدر وارتفع وتدافع حتى يفور فتتضاعف كميته في الحس، وينقص في الوزن»[3]. ويقول في الشأن نفسه: «وقالت طائفة أخرى: لو كان الجزر والمد بمنزلة النار إذا أسخنت الماء الذي في القدر وبسطته فيطلب أوسع منها فيفيض حتى إذا خلا قعره من الماء طلب الماء بعد خروجه منه عمق الأرض بطبعه فيرجع

---

[1] المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ص 85.

[2] المصدر نفسه، ص99.

[3] المصدر نفسه، ص89.

اضطرار بمنزلة رجوع ما يغلي من الماء في المرجل والقمقم إذا فاض وتتابعت أجزاء النار عليه بالحمى، لكان في الشمس أشد سخونة ولو كانت الشمس علة مده لكان يمد مع بدء طلوع الشمس، ويجزر مع غيبتها».[1]

ويقول أيضا في الشأن ذاته: «وقال آخرون: ما هيجان ماء البحر إلا كهيجان بعض الطبائع، فإنه ترى صاحب الدم وصاحب الصفراء وغيرهما تحتاج طبيعته [ثم تسكن، وكذلك مواد تمدها حالا بعد حال، فإذا قويت هاجت]، ثم تسكن قليلا قليلا حتى تعود».[2]

كما نجده تحدث عن الأحاديث التي تناقلت حول أن بحر الظلمات والمحيط هو أصل البحار كلها يقول:«وقد ذهب قوم إلى أن هذا البحر أصل سائر البحار، وله أخبار عجيبة قد أتينا على ذكرها في كتابنا "أخبار الزمان"في أخبار من غرر وخاطر بنفسه في ركوبه، ومن نجا منهم، ومن تلف، وما شاهدوا منه، وما رأوا [وأن منهم رجلا من أهل الأندلس يقال له خشخاش، وكان من فتيان قرطبة وأحداثها فجمع جماعة من أحداثها، وركب بهم مراكب استعدها في هذا البحر المحيط، فغاب فيه مدة ثم انثنى بغنائم واسعة، وخبره مشهور عند أهل الأندلس]».[3]

كما نجده تحدث كذلك عن الأحاديث التي تناقلت بين الناس حول التنين فنجده يقول: «فمنهم من رأى أنه ريح سوداء تكون في قعر البحر فتظهر إلى النسيم، وهو الجو، فتحلق السحب كالزوبعة، فإذا صارت من

---

[1] المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ص 90.

[2] المصدر نفسه، ص 90.

[3] المصدر نفسه، ص 93.

الأرض واستدارت وأثارت معها الغبار ثم استطالت في الهواء ذاهبة الصعداء توهم الناس أنها حيات سود [قد ظهرت من البحر لسواد السحاب، وذهاب الضوء وترادف الرياح]». [1]

ويقول في الشأن نفسه: «ومنهم من رأى أنها دواب تتكون في قعر البحر، فتعظم وتؤدي دواب البحر، فيبعث الله عليها السحاب والملائكة فيخرجونها من بينها، وأنها على صورة الحية السوداء لها بريق وبصيص، لا تمر بمدينة إلا أتت على ما يقدر عليه من بناء عظيم أو شجر أو جبل، وربما تتنفس فتحرق الشجرة الكبيرة فيلقيه السحاب في بلد يأجوج ومأجوج، ويمطر السحاب عليهم، فيقتل التنين، فمنه يتغذى يأجوج ومأجوج». [2]

أيضا من الأحاديث التي نقلها المسعودي الزعم حول أن بحر الخزر يتصل ببحر مانطيش «وقد غلط قوم زعموا أن البحر الخزري يتصل ببحر مانطش، ولم أرفيمن دخل بلاد الخرز [من التجار ومن ركب منهم في بحر مانطش ونيطش إلى بلاد الروس والبلغر أحدا يزعم أن بحر الخزر يتصل] ببحر من البحار أو بشيء من مائها أو من خلجانها إلا من نهر الخزر». [3]

كما نقل المسعودي في نصوص رحلته هده مروج الذهب ومحلان الجوهر الإخبار وتواريخ الأمم فنجده ينقل ما اخبره به مجموعة من نواخذة بحر الصين والهند والسند والزنج والقلزم من السيرافيين حول مبادئ تكوين

---

[1] المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ص 97.

[2] المصدر نفسه، ص 97.

[3] المصدر نفسه، ص 99.

البحار يقول: «يخبرون عن البحر الحبشي في اغلب الأمور على خلاف ما ذكرته الفلاسفة وغيرهم ممن حكينا عنهم المقادير والمساحة».[1]

كذلك من الأخبار التي نقلها ما اخبره به واحد من نواخذة السيرافيين والعمانيين حول البحار التي يتواجد بها العنبر يقول: «واخبرني غير واحد من نواخذة السيرافيين والعمانيين بمعان وسيراف ...ممن كان يختلف إلى هذه الجزائر أن العنبر ينبت في قعر هذا البحر ويتكون كتكون أنواع الفطر من الأبيض والأسود والكمأة (و المغاريد وبنات اوبر) ونحوها.فإذا هاج البحرو اشتد قذف من قعره الصخور والأحجار وقطع العنبر».[2]

4– النقل عن الكتاب:

كان النقل عن الكتب مصدر من المصادر التي اعتمدها الرحالة في كتباتهم الرحلية حيث تنوعت الكتب التي اعتمدوا عليها حيث اخذوا عن الجغرافيين السابقين أو كتاب التواريخ وأصحاب الرحلات السابقين ومن الأمثلة على دلك ما أورده المسعودي في رحلته نقلا عن كتب الكندي وتلميذه يقول: «ورأيت في بعض الكتب المضافة إلى الكندي وتلميذه وهو احمد بن الطيب السر خسي صاحب المعتقد بالله – إن في طرف العمارة من الشمال بحيرة عظيمة بعضها تحت قطب الشمال وأن بقربها مدينة ليس بعدها عمارة يقال لها تولية».[3]

---

[1] المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ص 101.

[2] المصدر نفسه، ص 118.

[3] المصدر نفسه، ص 99.

و ينقل أيضا عن احمد بن الطيب في حديثه عن بحر الروم فيقول: «وقد ذكر احمد بن الطيب في رسالته في البحار والمياه والجبال عن الكندي أن بحر الروم طوله ستة ألاف ميل من بلاد صور وطرابلس وإنطاكية واللاذقية والمثقب وساحل المصيصة وطرسوس وقلمية إلى منار هرقل وان اعرض موضع فيه أربعمائة ميل».[1]

وينقل أيضا عن كتاب الفلاحة حول علامات معرفة وجود الماء يقول: «ووجدت في كتاب الفلاحة إن من أراد أن يعلم قرب الماء وبعده فليحفر في الأرض قدر ثلاثة اذرع أو أربعة ثم يأخذ قدرا من نحاس أو إجانة حزف فيدهنها بالشحم من داخلها مستويا ولتكن القدر والسعة الفهم فادا غابت الشمس فخذ صوفة بيضاء منفوشة مغسولة وخذ حجرا قدر بيضة فلف ذلك الصوف عليه مثل الكرة تم اطل جانب الكرة بموم مذاب والصقها في أسفل دلك القدر الطي قد دهنته بدهن أو شحم ثم القها في أسفل الحفيرة....».[2]

ويفعل في شان نفسه: «ووجدت في بعض نسخ من كتاب الفلاحة في هذا المعنى أن من أراد علم ذلك فلينظر إلى قرى النمل فان وجد النمل غلاظا سودا كفيلة المشي (فلينظر) فعنى قدر تقل مشيهن الماء قريب منهن وان وجد النمل المريح المشي لا يكاد يلحق فالماء على أربعين ذراعا. والماء الأول يكون عذبا طيبا والثاني (يكون) تقيلا مالحا».[3]

ونجده ينقل عن أبو معشر المنجم حول اضطراب البحار وهدوئها يقول: «وقد حكى أبو معشر المنجم في كتابه المترجم بالمدخل الكبير إلى علوم النجوم ما ذكرنا من اضطراب هذه البحار وهدوئها عند كون الشمس فيما

---

[1] المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ص 99.

[2] المصدر نفسه، ص 102.

[3] المصدر نفسه، ص 102.

ذكرنا من البروج وليس يكاد يقطع من عمان نحو الهند في انتهائه إلا مركب معزز وحمولته يسيرة، وتسمى هذه المراكب بعمان إذا قطعت أرض الهند في هذا الوقت التيرماهية وذلك لأن بلاد الهند وبحر الهند يكون فيه اليسارة– وهو الشتاء ودوام الأمطار في كانون وعندهم الشتاء كما يكون عندنا الحر في حزيران وتموز وآب، فشتاؤنا سيفهم».[1]

المطلب الثاني: عناصر تشكل صورة البحر

تعددت واختلفت العناصر المكونة لصورة الأخر في نصوص الرحلات العربية القديمة ومن هذه العناصر نجد:

الكلمات:

تعتبر الكلمات عنصرا مهما من عناصر تشكيل صورة الآخر آو صورة موضوع ما في النصوص الرحلية وكما سبق وتحدثنا في تعريفها فهي حقول معجمية تقوم بنقل مشاعر الكاتب حول الآخر أو موضوع ما، وهذه الحقول المعجمية والدلالية هي متعددة ومتنوعة في النص الواحد ومن الأمثلة على ذلك نذكر بعض هده الحقول الدلالية التي وردت في رحلة مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي والتي استعملها في حديثة عن البحار وما أحاط بها منها حقل الألفاظ الدالة على البحر، وما له صلة وثيقة به مثل: خليج، المراكب، جزيرة، الموج، أرباب، نواخذة، شراع، ساحل، المد، الجزر ...

[1] المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ص 115.

يقول المسعودي في حديثه عن بحر الهند: «وينتهي هؤلاء في بحر الزنج إلى جزيرة قنبلو على ما ذكرنا، وإلى بلاد سفالة والواق واق من أقاصي أرض الزنج، والأسافل من بحرهم، ويقطع هذا البحر السيرافيون، وقد ركبت أنا البحر من مدينة سنجار، ومن بلاد عمان (وسنجار قصيدة بلاد عمان) مع جماعة من نواخذة السيرافيين، وهم أرباب المراكب»[1]. ويقول أيضا متحدثا عن خلجان البحر الحبشي: «.. إنّ خليجا آخر يمتد من هذا البحر الحبشي فينتهي إلى مدينة القلزم..، ويلاقي ما ذكرنا من الحجاز وبلاد أيلة من غربيه من الساحل الآخر من هذا الخليج بلاد الملاقي وبلاد العيذاب من أرض مصر وأرض البجة،... »[2].

ونجده يقول في حديثه عن المد والجزر: «المد: مضي الماء في فيحته وسيحته وسنن جريته، والجزر: رجوع الماء على ضد سنن مضيه وانكشاف ما مضى عليه في هيجه»[3].

أيضا من الحقول الدلالية التي استخدمها المسعودي في حديثه عن البحار وما أحاط بها حقل الألفاظ الدالة على الحيوانات البحرية وكذا البرية مثل: التمساح، الجناح، ابن عرس، مخالب، الخيل، التنين، السلاحف، السرطان،..

يقول المسعودي في حديثه عن سمك الأوال: «وفيه السمك المعروف بافال طول السمكة نحو من أربعمائة ذراع إلى خمسمائة ذراع بالذراع العمرية،..»[4].

---

[1] المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ص 84-85.

[2] المصدر نفسه، ص86.

[3] المصدر نفسه، ص 89.

[4] المصدر نفسه، ص 85.

ويقول أيضا في حديثه عن التمساح: «وكذلك التمساح يموت من دويبه تكون في ساحل النيل وجزائره، وذلك لأن التمساح لا دبر له وما يأكله يتكون في بطنه دودًا..»[1]. ويقول أيضا في حديثه عن السراطين في بحر الصين: «وفي هذا البحر نوع من السراطين يخرج من البحر كالذراع والشبر وأصغر من ذلك وأكبر..»[2].

أيضا من الحقول الدلالية التي استخدمها المسعودي في حديثه عن البحار وما أحاط بها، حقل الألفاظ الدالة على المدن والبلدان مثل: الحبشة، الزنج، سنجار، سيراف، القلزم، القسطنطينية، الديلم، الأندلس... إلخ، يقول المسعودي في حديثه عن بحر الأعاجم وما أحاط به من البلدان: «فأما بحر الأعاجم الذي عليه دورها ومساكنها فهو معمور بالناس من جميع جهاته، وهو المعروف ببحر باب الأبواب والخزر والجيل [الديلم] وجرجان وطبرستان... وينتهي في إحدى جهاته نحو بلاد خوارزم...» [3].

ويقول أيضا في حديثه عن البلدان المحيطة ببحر الروم: «والعمارة على هذا البحر من المضيق الذي قدمنا ذكره، وهو الخليج الذي عليه طنجة، متصلة بساحل المغرب وبلاد افريقية والسوس وطرابلس المغرب والقيروان وساحل برقة والرفادة وبلاد الإسكندرية] ورشيد وتنيس ودمياط وساحل الشام وساحل الثغور الشامية ثم ساحل الروم...» [4].

---

[1] المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ص 85.

[2] المصدر نفسه، ص 121.

[3] المصدر نفسه، ص 96.

[4] المصدر نفسه، ص 96.

أيضا من الحقول الدلالية التي استخدمها المسعودي في حديثه عن البحار وما أحاط بها في رحلته، حقل الألفاظ الدالة على غلال البحر مثل: اللؤلؤ، الياقوت، الكافور، الذهب، الفضة، الطيب، العنبر، الخيزران، النخل، النارجيل... إلخ

يقول المسعودي في حديثه عن الجواهر والطيب والنبات الموجودة في البحر الحبشي وما حوله: «وفي هذا البحر مغاصات الدر واللؤلؤ، وفيه العقيق والباديبج وهو نوع من البجادي، وأنواع الياقوت والماس والسناذج وفيه معادن ذهب وفضة نحو بلاد كلة وسريرة، وهو له معادن حديد مما يلي بلاد كرمان، ونحاس بأرض عمان، وفيه أنواع الطيب والأفاويه والعنبر وأنواع الأدوية والعقاقير والساج والخشب المعروف بالدرازنجي والقنا والخيزران»[1]. ويقول أيضا في حديثه عن غداء شعب بلاد الترك والنبات الموجود فيها:«... ويلي جزيرة سرنديب جزائر آخر نحو من ألف فرسخ تعرف بالرامين معمورة وفيها ملوك وفيها معادن من ذهب كثيرة، ويليها بلاد قنصور وإليها يضاف الكافور القنصوري، .. وأكثر ما ذكرنا من الجزائر غذائهم النارجيل، ويحمل من هذه الجزائر خشب البقم والخيزران والذهب...» [2].

وهذه الحقول الدلالية التي ذكرناها لم تكن سوى بعض الكلمات من مجموع الحقول الدلالية التي استعملها المسعودي في حديثه عن البحار وما أحاط بها والتي لا يسعنا الحديث عنها جميعا.

---

[1] المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ص 87.

[2] المصدر نفسه، ص 118-119.

2– الأسطورة:

تعد الأسطورة واحدة من العناصر التي يعتمد عليها في تشكيل صورة موضوع ما، وهي تعرف بأنها فعل جماعي، كما أنها تعد أيضا تأريخا للأمم وهي نابعة من معتقدات الشعب، وهي تعرف بأنها: «الأباطيل والأحاديث التي لا نظام لها،.. والأسطورة واقع في الزمان الغابر، ثم خرج واقعها عن الحقيقة وتجسم كثيرا،.. وهي تشرح بمنطق العقل البدائي ظواهر الكون والطبيعة والعادات الاجتماعية التي كانت سائدة قديما»[1].

وقد اعتمد عليها الكثير من الرحالة في كتابتهم لرحلاتهم، وأثناء تشكيلهم لصورة الآخر أو صورة موضوع ما في كتاباتهم، ومن الرحالة الذين اعتمدوا على عنصر الأسطورة في رحلاتهم المسعودي، حيث نجد أنه اعتمد على الأسطورة في تشكيله لصورة البحر وما يحيط به، ومن الأساطير التي ذكرها خلال حديثه عن البحار، حديثه عن التنين يقول: «وقد اختلف الناس في التنين فمنهم من رأى أنه ريح سوداء تكون في قعر البحر فتظهر إلى النسيم، وهو الجو، فتلحق السحب كالزوبعة، فإذا صارت من الأرض واستدارت وأثارت معها الغبار ثم استطالت في الهواء ذاهبة الصعداء توهم الناس أنها حيات سود [قد ظهرت من البحر لسواد السحاب، وذهاب الضوء وترادف الرياح]» [2].

---

[1] محمد التونجي: معجم المفضل في الأدب، ص 91.

[2] المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ص 97.

3– الخيال:

يعتبر الخيال واحدا من أهم العناصر التي يعتمد عليها الرحالة في إنشائهم وتكوينهم لصورة الآخر أو لصورة موضوع ما، وكما سبق وأشرنا فهو ملكة من ملكات العقل لا يملكها كل الناس، وهو يضفي على النصوص الرحلية جاذبية وتجعل القارئ يتشوق لمعرفة النهاية والأحداث اللاحقة، ومن بين الرحالة الذين اعتمدوا على عنصر الخيال في تصويرهم تشكيلهم لصورة موضوع ما المسعودي، ومن بين الحكايات الخيالية التي قصها المسعودي، قصة عمران بن جابر يقول: «... الذي صعد في النيل، فأدرك غايته، وعبر البحر على ظهر دابة تعلق بشعرها وهي دابة ينجر منها على الأرض شبر من قوائمها تغادي قرن الشمس... [فاغرة فاها نحوها لتبتلع– عند نفسها– الشمس] فعبر... البحر،... حتى صار إلى ذلك الجانب... »[1].

ويقول أيضا في موضع آخر: «إن قبة من الذهب وأنواع الجوهر في وسط البحر الأخضر على أربعة أركان من الياقوت الأحمر ينحدر من كل ركن من هذه الأركان ماء عظيم من رشحه فقسم إلى جهات أربع في ذلك البحر الأخضر غير مخالط له، ولا متماس به، ثم ينتهي إلى جهات من البر من سواحل ذلك البحر..» [2].

أيضا عن الحكايات الخيالية التي ذكرها المسعودي ما أخبره به جماعة من النواخذة حول ما رأوه في البحر يقول:«... أنهم رأوا في هذا البحر سحابا أبيض قطعا صغارا يخرج منه لسان أبيض طويل حتى يتصل بماء البحر،

---

[1] المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ص 97.

[2] المصدر نفسه، ص 98.

فإذا اتصل به غلى البحر لذلك، وارتفعت منه زوابع عظيمة، لا تمر زوبعة [منها بشيء إلا أتلفته، ويمطرون عقيب ذلك مطرا سهكا فيه أنواع من قذى البحر».[1]

4– النمط:

يعد النمط من العناصر المعتمد عليها في تشكيل صورة الآخر أو صورة موضوع ما، وهو من العناصر المشوهة لها، وذلك لأنه ثابت غير قابل للتغير مهما تغير الزمن وهذا يؤدي إلى تشوه الصورة ويؤدي إلى ابتعادها عن الحقيقة، وقد اعتمد العديد من الرحالة في تصويرهم لصورة البحار على هذا العنصر من عناصر تشكيل الصورة، حيث كانوا يعتبرون البحار خطيرة ومحظورة على الإنسان، يقول المسعودي في حديثه عن بحر اوقيانوس: «ثم أوقيانوس الذي لا يعلم أكثر نهاياته وهو الأخضر المظلم المحيط».[2]

ويقول أيضا في حديثه عن بحر الصين «وهو بحر خبيث كثير الموج والخب، وتفسير الخب الشدة العظيمة في البحر».[3]

ويقول في الشأن نفسه: «وذلك أن البحر إذا عظم خبه وكثر موجه ظهرت أشخاص سود طول الواحد منهم نحو الخمسة أشبار أو الأربعة كأنهم أولاد الأحابش الصغار، شكلا واحدا، وقد واحدا فيصعدون المراكب، ... فإذا شاهد الناس ذلك تيقنوا الشدة، فإن ظهورهم علامة للخب».[4]

---

[1] المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ص 119.

[2] المصدر نفسه، ص 98.

[3] المصدر نفسه، ص 120.

[4] المصدر نفسه، ص 120.

فهم يربطون ظهور هؤلاء الأشخاص السود دائما بشدة البحر وخبه.

5– السيناريو:

يعتبر السيناريو من العناصر المشكلة لصورة البحر في الرحلات العربية القديمة، وهو من العناصر التي اعتمد عليها المسعودي في تشكيله لصورة البحر وما أحاط به في رحلته "مروج الذهب ومعادن الجوهر".

كان العرب ينظرون إلى البحر نظرة مليئة بمشاعر الخوف والرهبة وذلك بسبب الغموض الذي يلفه، وكذا خطورته وخطورة حيواناته وجزره، وقد استعمل المسعودي في حديثه عن أحوال هذه البحار وخطورتها العديد من القصص التي ترمز إلى ذلك، يقول المسعودي في حديثه عن خطورة البحر الحبشي: «وقد ركبت أنا هذا البحر من مدينة سنجار، ومن بلاد عمان(وسنجار قصبة بلاد عمان) مع جماعة من نواخذة السيرافيين، وهم أرباب المراكب،... وفي هذا البحر تلف ومن كان معه في مركب، وآخر مرة ركبت فيه في سنة أربع وثلاثمائة من جزيرة قنبلو إلى مدينة عمان، وذلك في مركب أحمد وعبد الصمد... وفيه غرقا في مركبهما وجميع من كان معهما».[1]

ما رواه المسعودي حول ركوبه لهذا البحر هو ومن كان معه وتحطم مراكبهم وموتهم فيه تدل على هول أمواج هذا البحر وخطورته.

6– العلاقات الاجتماعية:

تعد العلاقات الاجتماعية من العناصر المشكلة لصورة البحر وما أحاط به في الرحلات العربية، وهو من العناصر التي اعتمد عليها المسعودي في تشكيله لصورة البحر في رحلته.

---

[1] المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ص 85.

لم تكن تربط العرب مع البحار قديما علاقة وطيدة، وذلك لكون البحر فضاءا غريبا عليهم ولم يكونوا على علم بجميع خباياه، فكان يلفه الغموض في نظرهم، وكانوا يخافون ويرهبون منه، ومن الأمثلة على ذلك حديث المسعودي حول غموض بحر أوقيانوس والذي يقول: «وقد ذهب قوم إلى أن هذا البحر أصل ماء سائر البحار، وله أخبار عجيبة ... في أخبار من غزر وخاطر بنفسه في ركوبه، ومن نجا منهم، ومن تلف، وما شاهدوا منه، وما رأو، ...».[1]

ويقول أيضا في حديثه عن بحر لا روى خطورته وهو بحر من بحار البحر الحبشي «... فمن هناك تنطلق المراكب إلى البحر التالي وهو معروف بلا روى ولا يدرى عمقه ولا يحصى طوله وعرضه عدد البحريين، وربما يقطع في الشهرين والثلاثة وفي الشهر، عن قدر مهاب الريح والسلامة، وليس في هذه البحار أعني ما احتوى عليه البحر الحبشي، أكبر من هذا البحر بحر لا روى، ولا أشد».[2]

ويقول أيضا في حديثه عن مخاطر بحر الصين والخوف منه: «ثم البحر السابع وهو بحر الصين على ما رتبناه آنفا، ويعرف ببحر صنجي وهو بحر خبيث كثير الموج والخب، وتفسير الخب الشدة العظيمة في البحر ».[3]

وبالرغم من مشاعر الخوف والرهبة التي كانوا يحملونها اتجاه البحار إلا أن هذه المشاعر لم تكون عائقا أمامهم من أن يستفيدوا من هذه البحار، فكانوا يستفيدون من البحار وحيواناتها وثرواتها، يقول المسعودي في هذا

---

[1] المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ص 93

[2] المصدر نفسه، ص 117.

[3] المصدر نفسه، ص 120.

الشأن: «والغوص عن اللؤلؤ في بحر فارس، وإنما يكون في أول نيسان إلى آخر أيلول، وما عدا ذلك من شهور السنة فلا غوص فيها».[1]

ويقول أيضا حول أماكن وجود العنبر: «وذلك أن العنبر أكثر يقع إلى بلاد الزنج وساحل الشجر من أرض العرب، ... ولهم نجب يركبونها بالليل تعرف بالنجب المهرية تشبه في السرعة بالنجب البجاوية، بل عند جماعة أنها أسرع منها، يسيرون عليها عن الساحل بحرهم، فإذا أحست هذه النجب بالعنبر قد قذفه البحر بركت عليه».[2] ويقول في الشأن نفسه: «ومنه ما يبلعه الحوت المعروف بالأوال المقدم ذكره، وذلك أن البحر إذا اشتد قذف من قعره العنبر كقطع الجبال وأصغر على ما وصفنا، فإذا ابتلع الحوت العنبر قتله فيطفو فوق الماء، ولذلك أناس يرصدونه في القوارب من الزنج وغيرهم، فيطرحون فيه الكلاليب والحبال، فيشقون عن بطنه ويستخرجون العنبر منه».[3]

ويقول أيضا متحدثا عن سراطين البحر واستفادة الناس منها: «وفي هذا البحر نوع من السراطين يخرج من البحر كالذراع والشبر وأصغر من ذلك وأكبر، فإذا بان عن الماء بسرعة حركة وصار على البر صار حجارة وزالت عنه الحيوانية، وتدخل تلك الحجارة في أكحال العين وأدويتها».[4]

---

[1] المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ص 116.

[2] المصدر نفسه، ص 117.

[3] المصدر نفسه، ص 117.

[4] المصدر نفسه، ص 121.

المطلب الثالث: حالات فهم البحر وقراءاته

توجد ثلاثة حالات حالتين منها تدخل ضمن الحالة الذاتية وهما التشوية السليبي والتشويه الإيجابي، والحالة الثالثة تدخل ضمن الحالة الموضوعية وهي التسامح.

فأما بالنسبة الحالة التشويه السلبي فإن الكاتب في هذه الحالة لا يترك صورة سلبية إلا ويقوم بإلصاقها بالأجنبي، ويعرف موضوع البحر في الرحلات العربية القديمة سيطرة هذه الحالة على الرحالة حول موضوع البحر. حيث يرون أنه فضاء غريب عنهم، ويرونه مليء بالغموض ولمخاطر سواء حيواناته الخطيرة أو جزائره المليئة بالمخاطر والغموض ويشعرون ناحيته بالخوف والرهبة ويقول المسعودي في حديثه عن خطورة بحر الزنج: " وقد ركبت أنا هذا البحر من مدينة سنجار.... مع جماعة من نواخدة السيرافيين، وهم أرباب المراكب، مثل محمد بن الريدوم السيرافي، وجوهر بن أحمد، وهو المعروف بابن سيرة، وفي هذا البحر تلف ومن كان معه في مركبه"[1].

ويقول أيضا في الشأن نفسه :"وأخر مرة ركبت فيه في سنة أربع وثلاثمائة من جزيرة قنبلو إلى مدينة عمان، وذلك في مرة ركبت أحمد وعبد الصمد أخوي عبد الرحيم بن جعفر السيرافي، بميكان (وهي محلة من سيراف) وفيه غرقا في مركبهما وجميع من كان معهما "[2].

ويقول أيضا في حديثه عن ضخامة سمك بحر الزنج وخطورته:...وفيه السمك المعروف بافال طول السمكة نحو من أربعمائة ذراع إلى خمسمائة ذراع بالذراع العمرية، وهي ذراع ذلك البحر، والأغلب من هذا السمك طوله مائة ذراع، وربما يهز البحر.

---

[1] المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ص84– 85.

[2] المصدر نفسه، ص85.

فيظهر شيئا من جناحه، فيكون كالقلع العظيم، وهو الشراع، وربما يظهر رأسه، وينفخ الصعداء بالماء فيذهب الماء في الجو أكثر من ممر السهم،و المراكب تفرغ منه في الليل والنهار، وتضرب له بالدبادب والخشب لينفر من ذلك،...."[1].

ويقول أيضا في حديثه عن شدة بحر لاروى:"... فمن هنالك تنطلق المراكب إلى البحر الثاني وهو المعروف بلا روى ولا يدرى عمقه ولا يحصر طوله وعرضه عند البحرين، وربما يقطع في الشهرين والثلاثة وفي الشهر، على قدر مهاب الريح والسلامة، وليس في هذه البحار... أكبر من هذا البحر بحر لاروى ولا أشد..."[2]. ويتحدث عن خبث بحر الصين وشدته فيقول: " ثم البحر السابع وهو بحر الصين على ما رتبناه آنفا ويعرف ببحر صنجي وهو بحر خبيث كثير الموج والخب، وتفسير الخب الشدة العظيمة في البحر..."[3].

أما الحالة الثانية وهي **التشويه الإيجابي**: فإن الكاتب في هذه الحالة يرى الواقع الأجنبي أفضل في كل شيء وفي هذه الحالة توجد الرحالة العرب تجاه البحر فهم يرون أن البحار لا يوجد أكبر وأعظم منها يقول المسعودي في هذه الصدد " قدروا بحر الهند، وهو البحر الحبشي، وأنه يمتد طوله من المغرب إلى المشرق من أقصى الحبش إلى أقصى الهند والصين ، ثمانية ألاف ميل وعرضه ألفان وسبعمائة ميل، وعرضه في موضع أخر ألف وتسعمائة ميل....، وليس في المعمور أعظم من هذا البحر"[4].

---

[1] المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ص85.

[2] المصدر نفسه، ص117

[3] المصدر نفسه، ص120

[4] المصدر نفسه، ص84.

ويقول أيضا في حديثه عن عظمة بحر نيطش: " ويسير بحر مانطش ... حتى يصب في بحر نيطتش، وهذا البحر عظيم..."[1]

أما بالنسبة للحالة الثالثة وهي تدخل ضمن الحالة الموضوعية في التسامح وهي الحالة التي يمكن من خلالها بناء علاقة إيجابية مع الآخر، وتقوم على الأخذ والعطاء.

وهذه الحالة شائعة بين العرب البحر فهم بالرغم من خوفهم من البحار إلا أنهم عرفوا كيف يستفيدون منه،و يقول المسعودي " والغوص على لؤلؤ في بحر فارس، وإنما يكون في أول نيسان إلى أخر يوم أيلول، وماعدا ذلك من الشهور السنة فالا غوص فيها..."[2] ويقول أيضا حول العنبر وأماكن تواجده وطريقة التقاطهم له. وذلك أن العنبر أكثره يقع في بلاد الزنج وساحل الشحر من أرض العرب،...، ولهم نجب يركبونها بالليل تعرف بالنجب المهرية تشبه في السرعة بالنجب البجاوية، بل عند جماعة أنها أسرع منها، يسيرون عليها على ساحل بحرهم، فإذا أحست هذه النجب بالعنبر قد قذفه البحر بركت عليه، قد ريضت لذلك واعتادته فيتناوله الراكب،..." [3]

ويقول أيضا في الشأن نفسه: " ...، ومنه ما يبلعه الحوت المعروف بالأوال المقدم ذكره، وذلك أن البحر إذا اشتد قذف من قعره العنبر كقطع الجبال وأصغره، على ما وصفنا فإذا ابتلع هذا الحوت العنبر قتله فيطفوا فوق

---

[1] المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ص95.

[2] المصدر نفسه، ص116.

[3] المصدر نفسه، ص117.

الماء، ولذلك أناس يرصدونه في القوارب من الزنج وغيرهم، فيطرحون فيه الكلاليب والحبال، فيشقون عن بطنه ويستخرجون العنبر منه."[1]

ويقول أيضا في حديثه عن سراطين البحر واستفادة الناس منها:" وفي هذا البحر نوع من السراطين يخرج من البحر كالذراع والشبر وأصغر من ذلك وأكبر، فإذا بان عن الماء بسرعة حركة وصار على البر صار حجارة وزالت عنه الحيوانية وتدخل تلك الحجارة في أكحال العين وأدويتها."[2]

المبحث الثاني: صورة البحر في رحلة المسالك والممالك "للبكري"

المطلب الأول: مصادر صور البحر

تعددت وتباينت المصادر التي استند إليها الرحالة العرب في تشكيل صورة الآخر ورصد مختلف الجوانب ومن بين المصادر التي اعتمدها الرحالة أبو عبيد البكري في رحلته "المسالك والممالك" نجد المشاهدة والمعايشة، السماع والإخبار، وكذلك النقل عن الكتب.

1– المشاهدة:

اعتمد الرحالة العرب على المشاهدة في توثيق أخبارهم ومعلوماتهم وتصويرهم للأماكن التي وصلوا إليها وتعدّ المشاهدة من أبرز العناصر المشكلة لصورة الآخر إلا أنّ الرحالة أبو عبيد البكري لم يعتمد على هذا العنصر في رحلته، إذ أنه لم يرتحل، فبطبيعة الحال لم يرى ولم يشاهد وهذا ما جاء في مقدمة رحلته الذي قول فيها من

---

[1] المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ص117.

[2] المصدر نفسه، ص121.

خلال شخصيّته أنه «قرّر أنه لم يرتحل، ولم يزعم أنه رأى أو شاهد وإنما جمع ذلك من الكتب الذي ألفت قبله».[1]

2– المعايشة:

تختلف مصادر تشكل صورة الآخر في الرحلات العربية باختلاف كتاباتها ولعلّ أبرزها التعايش فالرحالة أبو عبيد البكري في رحلته "المسالك والممالك" لم يكن معايشا للبحر ولركوبه فهو لم يرتحل أو يشاهد فبطبيعة الحال لم يكن معايشا لهذا البحر بل تحدّث عليه بصورة خيالية ونقل عن الكتب الذين سبقوه.

3– السماع والإخبار:

إن كتب الرحلات غنية بالكثير من الحوادث التي ينقلها الرحالة عن غيرهم ويعد السماع والإخبار من أهم بالمصادر التي اعتمد عليها أبو عبيد البكري في تشكيل صورة الآخر، وتعتبر رحلة المسالك والممالك لأبي عبيد البكري رحلة غنية بهذا المصدر، حيث نجده يتحدّث عن الأحداث التي تناقلت بين الناس حول أنواع الياقوت وألوانه حيث قالوا: «إن مبارد الحديد لا تؤثر في ألوان الياقوت، وقد زعم ارسطا طاليس أن من تقلّد حجرا أو تختم به من هذه الأصناف الثلاثة التي ذكرنا من الياقوت، وكان في بلد قد وقع فيه الطاعون منع من أن يصيبه ما أصاب أهل البلد ».[2]

---

[1] رحلة المسالك والممالك، مقدمة الرحلة ص "ب".

[2] أبو عبيد البكري، رحلة المسالك والممالك، ص 145.

وقال أيضا عن علّة المدّ والجزر أنه علّة القمر فيقول قوم: «هما الأبخرة التي تتولّد في باطن الأرض فأنها إذا تكثفت حينئذ ماء البحر، فلا يزال على ذلك حتى ينقص موداها، فيتراجع الماء حينئذ إلى قعور البحار، فكان الجزر، فهذا يدلّ على كونه في كل أوان، وفي غيبة القمر وطلوعه».[1]

ونجده ذكر الأحاديث التي تناقلت بين الناس حول التنين منها ما يروى عن ابن العباس «وقال قوم إنها حية البر تلقيها السيول في البحر فتعظم وتطول أعمارها فيبقى عمر الواحدة خمسمائة عام».[2]

وفي علّة المدّ والجزر كذلك قالوا (قوم) «إن هيجان البحر كهيجان بعض الطبائع بالإنسان ثم تسكن».[3]

4– النقل عن الكتب:

يعدّ النقل عن الكتب مصدرا مهمّا في تشكيل صورة الآخر حيث اعتمدها الرحالة في كتاباتهم ولقد تنوّعت واختلفت باختلاف مصادرها ومن أمثلة ذلك ما أورده أبو عبيد البكري في رحلته "المسالك والممالك" نقلا عن باطليموس في حديثه عن بحر هنكد قوله: «وذكر بطليموس أن مراقي بحر هركند وهي جزائر هذه الملكة ألف وتسعمائة جزيرة عامرة سوى الغامرة وبجزائر هذه الملكة يكون العنبر الجيد، وربما انتهى منها القطعة بقدر البيت».[4]

---

[1] أبو عبيد البكري، المسالك والممالك، ص154.

[2] المصدر نفسه، ص152.

[3] المصدر نفسه، ص154.

[4] المصدر نفسه، ص140.

– كما نجده نقل عن صاحب كتاب العجائب: « أن بحر هركند يليه بحر يقال له ذا نجد، وبينهما ألف وسبعمائة جزيرة».[1]

– كما نقل عن كتاب الطيب الذي ألفه إبراهيم بن الهينري، أن أحمد بن حفص العطار قال: « كنت جالسا في مجلس أبي إسحاق وهو يصفى عنبرا قد أذابه وأخرج ما كان فيه من الحشيش الذي حلقه مناقير الطير، فسألني فقلت هذه مناقير الطير الذي تأكل العنبر إذا رأته دوابه».[2]

فقال أيضا في ذكر بطليموس في حديثه عن البحر الأخضر قوله «ذكر بطليموس أن البحر الأخضر سبعة وعشرين ألف جزيرة عامرة وغامرة، منها جزيرة فيها أمة من بقايا النسناس، ولهم شجر يقال له اللوف يأكلون ثمره، ويلتحفون بورقه ».[3]

المطلب الثاني: عناصر تشكل صورة البحر

يعد الرحالة أبو عبيد البكري واحدا من بين الرحالة العرب حيث قام بعدة رحلات من بينها رحلته عبر البحر والمتمثلة في رحلة المسالك والممالك إذ جسد فيها صورته ورصد مختلف جوانبها، ولقد اختلفت وتنوّعت العناصر المكوّنة لتشكيل الصورة في هذه الرحلات القديمة ولعلّ أبرزها الكلمات، الخيال، الأسطورة...إلخ.

---

[1] أبو عبيد البكري، المسالك والممالك، ص159.

[2] المصدر نفسه، ص159.

[3] المصدر نفسه، ص121.

1– الكلمات:

تمثل الكلمات الوحدة الصغرى والنواة الأولى في العملة التواصلية أو التبليغية، فهي تعتبر عنصرا مهما من عناصر تشكيل الصورة في النصوص الرحلية، وكما سبق الذكر وعرفنا هذا العنصر إذ هي حقول معجمية تقوم بنقل مشاعر الكاتب، ولقد اعتمد الرحالة أبو عبيد البكري في رحلته "المسالك والممالك" هذه الحقول في حديثه ووصفه للبحار وعجائبه وما يحيط به من حيوان...إلخ، ومن بينها نجد حقل الألفاظ الدالة عن الصفات: ضخمة حصينة، أعظم منه، مفرطة الكبر، كثيرة خصب، شوامخ، عظيمة، العنبر...إلخ.

حيث قال أبو عبيد البكري: في حديثه عن البحر الأعظم «أن جميع بحار الأرض فروع من هذا البحر وقد نقل بعض المؤرخين أن أحد ملوك الأرض أراد أن يعلم صحة ذلك، فأنشأ سفنا ضخمة حصينة شحنها بالرجال والأزواد والمال ».[1] وهو يصفها بالخصوبة والحصانة.

وقال أيضا في حديثه عن بحر الهند «وليس في المعمور أعظم منه طوله من المشرق إلى المغرب ثمانية آلاف ميل وعرضه ألفان وسبعمائة ميل».[2]

وقال أيضا في حديثه عن العنبر «وبجزائر هذه المملكة يكون العنبر الجيد...وسنذكر أين يكون العنبر وأصله عند ذكر البحر الأخضر».[3]

---

[1] أبو عبيد البكري، المسالك والممالك، ص138.

[2] المصدر نفسه، ص140.

[3] المصدر نفسه، ص140.

ويقول في موضع آخر عن حديثه عن أسماك بحر الصين إذ يقول « وفيه يكون السمك المعروف بالأوّال، طول السمكة أربعمائة ذراع إلى الخمسمائة ذراع» [1]، فهو هنا يصوّر ويصف لنا طول وحم ذلك السمك.

وذكر نوعا آخر من السمك يدعى اللشك وذلك في قوله: « فإذا بغت هذه السمكة بعث الله لها سمكة نحو الذراع يدعى اللشك فتلتصق بأصل ذنبها...وتضرب بنفسها حتى تموت وتطفو فوق الماء فتكون كالجبل العظيم» [2]، جعل الله عزّ وجل في البحر سمك يدعى اللشك يلتصق بنوع آخر الأوال فيلزمه حتى يكون سبب في موته.

أيضا من الكلمات التي استعملها أبو عبيد البكري في رحلته نجد حقل الألفاظ الدالة على الحيوانات مثل: السراطين، البشان (الكركدن)، الفيل، التمساح، السمك، السلاحف، الجواميس، الكلاب، العقرب، القنافد الحياة....إلخ.

يقول أبو عبيد البكري في حديثه عن السراطين في بحر الصين إذ يقول «فإن من عجائبه أن فيه نوعا من السراطين ، يخرج منها كالذراع والبشر..انقلب عن الحيوانية وهو يدخل في أكحال العين».[3]

أيضا من الحقول الدلالية التي استخدمها أبو عبيد البكري عن البحار وما أحاط بها الكلمات الدالة على الخوف والرهبة من البحر وما فيه من حيوانات وما حوله، الموت، عظيم، الأسود، صياح، النار... يقول أبو عبيد

---

[1] أبو عبيد البكري، المسالك والممالك، ص143.

[2] المصدر نفسه، ص 144.

[3] المصدر نفسه، ص141.

البكري في حديثه عن سمك بحر الصين إذ يقول «وفيه يكن السمك المعروف بالأوال، طول السمكة أربعمائة ذراع إلى خمسمائة ذراع، بالذراع العمرية، ...وربما ظهر منه طرف كالشراع العظيم ».[1]

أيضا من الحقول الدلالية الكلمات التي استخدمها أبو عبيد البكري في كتابه حقل الألفاظ الدالّة على المدن والبلدان مثل: مصر، الشام، الأندلس، سرنديب، طنجة، الإسكندرية، المغرب، قبرص، صقلية، روما، البلقان، إدربيجان، قزوين، الكوفة، البصرة، سرنداي... إلخ، وفي هذا الشأن يقول أبو عبيد البكري:

«وبجزيرة سرنديب هيكل عظيم من ذهب يفرطون في مبلغ زينته وقيمة الجوهر الذي عليه ».[2]

ويقول أيضا في حديثه عن الجزائر إذ يقول «وفي جزائر بحر الصين مملكة المهراج، لا يستطيع أن يطوف بجزائره بأسرع المراكب في سنين كثيرة».[3]

ومن الحقول الدلالية التي وردت في رحلة أبو عبيد البكري أيضا نجد الألفاظ الدالة على سعة البحار التي تصب بها مثل الطول، العرض، إلخ يقول: أبو عبيد في حديثه عن بحر الأبواب«فأما بحر بات الأبواب هو بحر الخزر والجبل...وطوله نحو ثمانمائة ميل، وعرضه ستمائة ميل وهو مدور الشكل إلى الطول، وهذا بحر الأعاجم، معمور من جميع جهاته ».[4]

---

[1] أبو عبيد البكري، المسالك والممالك، ص143.

[2] المصدر نفسه، ص141.

[3] المصدر نفسه، ص141.

[4] المصدر نفسه، ص151.

– الأسطورة:

انصبّ اهتمام الإنسان العربي منذ بداياته على تفسير وجود الكون وعلاقته بالطبيعة وما وراءها، وهذا ما أدّى بشكل كبير إلى ظهور ما يسمّى بالأسطورة وهي عبارة عن حكاية تروي أحداث معينة، وتعدّ الأسطورة عنصرا مهما من عناصر تشكيل صورة الآخر، وهي تعرف بأنّها فعل جماعي، كما أنها تعدّ أيضا تأريخا للأمم وهي نابعة من معتقدات الشعب ولقد اعتمد عليها أبو عبيد البكري في رحلته "المسالك والممالك" من خلال حديثه عن البحار وما يحيط به من عجائب وحيوان ومن الأساطير التي ذكرها أبو عبيد البكري نجد عن الياقوت إذ يقول: «زعم أرسطاطليس أن من تقلّد حجرا أو تختم به من الياقوت الأحمر والأصفر والأكحل الموجود بجبل منيف بسرنديب، وكان في بلد قد وقع فيه الطاعون منع من أن يصيبه مما أصاب أهل البيت».[1]

و قال أيضا في حديثه عن التنين إذ يقول: «وقد اختلف الناس في التنين فمنهم من رأى أنه ريح سوداء تكون في قعر البحر فتظهر إلى الجو فتحلق بالسحاب كالزوبعة....و منهم من رأى أنها دواب تكون في قعر البحر فتعظم وترعى دواب البحث فيبعث الله عليها ملائكة وسحب تجرجرها منه...في بلاد مأجوج وماجوج»[2] استعمل التنين من أجل إضفاء نوع من الإثارة والتشويق.

وفي حديثه عن الفرس يقول: «والفرس تزعم أن له رؤوس سبعة وتسمية الإزدهاق...ثم تشيل عقبة فيتراجع الماء إلى مركزه».[3]

---

[1] أبو عبيد البكري، المسالك والممالك، ص145.

[2] المصدر نفسه، ص152.

[3] المصدر نفسه، ص152.

وفي حديثه عن عجائب البحار (البحر الأخضر) يقول: «زعموا أن في البحر الأخضر عرش إبليس، تشبه بالبارى سبحانه وتقدّست قدرته، حوله نفر من الأبالسة والعفاريت العظام وسائر أصناف الجنس».[1]

يعني أن للبحر الأخضر يوجد فيه عرش تشبه بالباري تقدست قدرته لكنه حوله عفاريت عظام من سائر أصناف الجنس.

– الخيال:

يعتبر الخيال عنصرا من بين العناصر المهمة في تشكيل صورة البحر التي اعتمدها الرحالة من بينهم أبو عبيد البكري الذي اعتمد على الخيال في رحلته المسالك والممالك، حيث سبق وأشرنا إليه فهو ملكة من ملكات العقل لا يملكها كل الناس، يجعل القارئ من خلال جاذبيته يتشوق لمعرفة الأحداث ولقد وظّف أبو عبيد البكري الخيال بكثرة في رحلته، حيث نجد العديد من الحكايات الخيالية التي لا يتقبلها عقل الإنسان، التي قمنا من خلال حديثه عن البحار وما يحيط به، منها: حديثه عن السمكة التي تطير حيث قال أبو عبيد البكري «في هذا البحر أسماك طيارة ، تطير ليلا فترتعي في البراري، فإذا أزف طلوع الشمس عات إلى البحر....، لم يجد لقفده مساءة».[2]

[1] أبو عبيد البكري، المسالك والممالك، ص156.

[2] المصدر نفسه، ص158.

ومن الحكايات الخيالية التي ذكرها أبو عبيد البكري في رحلته حديثه عن جزيرة ميلكان تسكنها دابة لقوله «وبه جزيرة ميلكان وهي دابة عظيمة بحرية قد استوطنت تلك الجزيرة وعرفت بها، ولهذه الدابة رؤوس كثيرة ووجوه مختلفة ».[1]

وفي حديثه عن البحر الأخضر فيه جزيرة ترى عن بعد حيث قال «وفي البحر الأخضر جزيرة ترى عن بعد، فإذا قرب منها القاصد غابت عنه، وإذا رجع الموضع الذي رآها منه ونظر إليها، رآها بادية بينه أن فيها شجرة تطلع بطلوع الشمس».[2]

– النمط:

يعدّ النمط عنصرا من العناصر التي اعتمد عليها الرحالة في تكوين وتشكيل صورة البحر وهو من العناصر التي أثارت تشويها في نفس القارئ أو الرحالة ولقد اعتمد أبو عبيد البكري في رحلته المسالك والممالك على هذا العنصر، فهو ثابت غير متغير مهما يتغير الزمن وهذا يؤدي إلى تشوه الصورة وابتعادها عن الحقيقة، ولقد وظّفه الرحالة في حديثه عن البحار إذ يعتبرها خطيرة ومحظورة على الإنسان يقول أبو عبيد في حديثه عن بحر الصين « بحر الصين بحر خبيث وبارد، ريحه من قعره كغليان الماء على مجامر النار... إذا هاج البحر ليلا كهيئة الزنج، ويطلعون إلى المراكب».[3]

---

[1] أبو عبيد البكري، المسالك والممالك، ص163.

[2] المصدر نفسه، ص166.

[3] المصدر نفسه، ص161.

ويقول أيضا في حديثه عن أسماك بحر الصين ومدى خطورتها على الإنسان يقول أبو عبيد في هذا الشأن: « في هذا البحر يكون اللخيم– سمكة تلتقم الناس– وربما مات الرجل من ركاب البحر، فيرمي به في البحر، فلا ينحط إلا وهو في قاع اللخيم كأنه كان له مرصدا».[1]

– السيناريو:

يعتبر السيناريو عنصرا من العناصر المشكلة لصورة موضوع ما وقد اعتمد عليه العديد من الرحالة في تصويرهم وتشكيلهم لصورة البحر وما يحيط به من عجائب، للبحر فضاء يمتاز بالغموض، فهو يحتوي على العديد من المخاطر ولقد وظّف أبو عبيد البكري في رحلته "المسالك والممالك" وقصص تدلّ على خطورة البحر وخطورة حيواناتها إذ يقول: « هو بحر خبيث وبارد ريحه من قعره كغليان الماء على محامر النار، ويخبر الثقات من ركوبه أنه بحر مسكون... ».[2]

ويقول أيضا عن حيوانات البحر بأنها خطيرة إذ يقول: «وفي هذا البحر يكون اللخيم– سمكة تلتقم الناس وربما مات الرجل من ركاب البحر فيرمي به في البحر، فلا ينحط ألا وهو في قاع اللخيم، كأنه كان له مرصدا».[3]

---

[1] أبو عبيد البكري، المسالك والممالك، ص161.

[2] المصدر نفسه، ص141.

[3] المصدر نفسه، ص161.

– العلاقات الاجتماعية:

من العناصر المشكلة لصورة الآخر أو صورة موضوع ما العلاقات الاجتماعية ولقد اعتمد عليها الرحالة العرب في تصويرهم وتشكيلهم لصورة البحر في رحلاتهم، ومن بين الرحالة نجد أبو عبيد البكري، رغم طبيعة الجزيرة العربية التي يحدها البحر إلاأنهم كانوا يهابون البحار ويخافونها يقول أبو عبيد البكري في حديثه عن بحر الصين «هو بحر خبيث وبارد، ريحه من قعره كغيلان الماء على مجامر النار، ويخبر الثقات من ركابه أن بحر مسكون...ويطلعون إلى المراكب».[1]

وقال أيضا: «وليس على هذا البحر مدن إلا مدينة واحدة يقال لها مولية، ولا يركبه أحد لغلظ جوهر مائة وظلمته وتكاثف الهواء عليه....من أقاصى بلاد المغرب »[2]، فالخبث والظلمة كناية عن الغموض والخوف من ركوبهم البحر ويقول أيضا: «وفيه يكون السمك المعروف بالأوال، طول السمكة أربعمائة ذراع إلى الخمسمائة ذراع، بالذراع العمرى....كالشراع العظيم».[3]

غير أن خوفهم وهيبتهم من البحار لم تمنع استفادتهم منها حيث كانوا يستفيدون من البحار ومن حيواناتها وثرواتها يقول أبو عبيد البكري «وبجزائر هذه المملكة يكون العنبر الجيّد، وربما انتهى منها القطعة بقدر البيت».[4]

---

[1] أبو عبيد البكري، المسالك والممالك، ص 141.

[2] المصدر نفسه، ص 139.

[3] المصدر نفسه، ص 143.

[4] المصدر نفسه، ص 140.

ويقول أيضا «وفي حد بحر الهند والسند الذي في قعره اللؤلؤ والعنبر وفي جباله الجوهر ومعادن الذهب والفضة».[1]

ويقول في الشأن نفسه عن حيوان البحر « فإذا بغت هذه السمكة (الأوال) بعث الله لها سمكة نحو الذراع تدعى اللشك فتلتصق بأصل ذنبها، فلا يكون لها منها خلاص...كالجبل العظيم ».[2]

المطلب الثالث: حالات فهم البحر وقراءته

توجد ثلاث حالات لفهم البحر حالتين منها تدخل ضمن الحالة الذاتية وهما التشويه السلبي، والتشويه الإيجابي، أما الحالة الثالثة تدخل ضمن الحالة الموضوعية ألا وهي التسامح.

فأما بالنسبة لحالة التشويه السلبي، فإن الكاتب في هذه الحالة يقوم بإلصاق الصورة السلبية بالأجنبي، ولقد عرف موضوع البحر في الرحلات العربية القديمة سيطرة لهذه الحالة على الرحالة حول موضوع البحر، حيث يرون أنه فضاء غريب مليء بالغموض والمخاطر، سواء كان من حيث حيواناته أو ركوبه، كما يشعرون بالخوف والرهبة يقول أبو عبيد البكري في حديثه عن خطورة البحر الأعظم يقول:" وليس على هذا البحر من المدن إلا مدينة واحدة يقال لها مولية، لا يركبه أحد لغلظ جوهر مائة وظلمته وتكاثف الهواء عليه...فإنه يركب من هناك إلى الجزائر إلى من أقاص بلاد المغرب"[3].

---

[1] أبو عبيد البكري، المسالك والممالك، ص 148.

[2] المصدر نفسه، ص144.

[3] المصدر نفسه، ص139.

ويقول أيضا في حديثه عن ضخامة سمك بحر الصين وخطورته إذ يقول: " وفيه يكون السمك المعروف بالأوال، طول السمكة، أربعمائة ذراع إلى الخمسمائة ذراع ... وهو قد فغر فتهوى إلى فيه جريا".[1]

وذكر نوعا آخر من السمك يدعى اللشك إذ يقول " فإذا بغث هذه السمكة بعث الله لها سمكة نحو الذراع تدعى اللشك فتلتصق بأصل دنبها... فتكون كالجبل العظيم"[2]، ويتحدث أيضا عن خبث بحر الصين وشدته إذ يقول " بحر الصين بحر خبيث وبارد، ريحه من قعره كغليان لماء على مجامر النار، ويخبر الثقات من ركابه أنه بحر مسكون... ويطلعون إلى المراكب"[3]

ويقول أيضا عن عظمة وشدة البحر المحيط إذ يقول" ويعد هذا البحر لا يدرك قعره، ولا يضبط غوره، تقطعه المراكب بالريح الطيبة في شهرين... من البحر المحيط أكبر منه ولا أشد حولا"[4].

أما الحالة الثانية وهي التشويه الإيجابي فإن الكاتب في هذه الحالة يرى الواقع الأجنبي أفضل في كل شيء وهذه الحالة توجد لدى الرحالة العرب تجاه البحر فهم يرون أن البحار لا توجد أكبر وأعظم منها، يقول أبو عبيد البكري في هذا الصدد في بحر الهند " وليس في المعمور أعظم منه، طوله من المشرق إلى المغرب ثمانية ألاف ميل، وعرضه ألفان وسبعمائة ميل...وهذا أصح"[5].

---

[1] أبو عبيدة البكري: المسالك والممالك، ص143.

[2] المصدر نفسه، ص144.

[3] المصدر نفسه، ص161.

[4] المصدر نفسه، ص157.

[5] المصدر نفسه، ص140.

أما بالنسبة للحالة الأخيرة وهي تندرج ضمن الحالة الموضوعية ألا وهي التسامح وهي الحالة التي تتم من خلالها بناء علاقة إيجابية مع الآخر، وتقوم على الأخذ والعطاء.

وهذه الحالة شائعة بين العرب وهم بالرغم من خوفهم من البحار إلا أنهم عرفوا كيف يستفيدون منه ومن ثرواته يقول أبو عبيد البكري في حديثه عن بحر فارس إذ يقول:" وعندهم أجود العنبر المدور الأزرق النادر... ومنه يحمل"[1] ويقول أيضا" وفي بحر الهند والسند الذي في قعره اللؤلؤ والعنبر، وفي جباله الجوهر ومعادن الذهب والفضة "[2] وفي حديثه عن سراطين البحر واستفادتهم منها يقول أبو عبيد البكري في هذا الشأن في بحر الصين" فأما بحر الصين، فإن من عجائبه أنه فيه نوعا من السراطين، يخرج منها كالذراع والشبر فإذا بان عن الماء إلى البر وصار إلى البر عاد حجرا، وانقلب عن الحيوانية وهو يدخل في أكحال العين"[3].

ويقول أيضا: " وفي بلده الحيوان المعروف بالبشان (الكركدن)... وهو أشد خلق الله عز وجل، وهو دون الفيل في الخلق...وهو قليل تصنع منه المناط بالألف"[4].

---

[1] أبو عبيد البكري، المسالك والممالك، ص147.

[2] المصدر نفسه، ص 148.

[3] المصدر نفسه، ص141.

[4] المصدر نفسه، ص142.

المبحث الثالث: صورة البحر في رحلة تحفة الألباب ونخبة الإعجاب:

المطلب الأول: مصادر صورة البحر

اعتمد "الغرناطي" في رحلته "تحفة الألباب ونخبة الإعجاب" على العديد ن المصادر التي تتشكل من خلالها صورة الآخر ومن أهم المصادر التي اعتمدها:

1– المشاهدة:

تعد المشاهدة من أهم وأكثر المصادر التي اعتمد عليها "الغرناطي" في تشكيله لصورة البحر في رحلته ومن الأمثلة على ذلك حديثه عن عجائب مخلوقات البحر يقول: "ورأيت في البحر أيضا سمكة كالجبل يبدو رأسها وظهرها وذنبها، ومن رأسها إلى ذنبها عظام سود كأسنان المنشار، كل عظم في رؤية العين أكثر من ذراعين، وكان بيننا وبينها في البحر أكثر من فرسخ، فسمعت الملاحين يقولون هذه السمكة تعرف بالمنشار وإذا صادفت أسفل السفينة قسمتها نصفين".[1]

ويقول أيضا: "ولقد رأيت يوما في البحر وأنا على صخرة والماء تحت رجلي قد خرج ذنب حية صفراء منقطة بسواد طولها مقدار باع تطلب أن تقبض على رجلي، فبعدت منها وأخرجت الحية رأسها كأنه رأس أرنب من تحت ذلك الحجر، فسللت خنجرا كبيرا كان معي، فطعنت به رأسها فأدخلت رأسها تحت الحجر،...

[1] أبو حامد الغرناطي: تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، ص24.

فأمسكت مقبض الخنجر بيدي جميعا وجعلت أجره وألصقه بالحجر كأني أقطع به شيئا، فتركت الخنجر وخرجت من تحت الحجر وإذا بها خمس حيات، ورأس واحد..."[1]

ويقول أيضا:" ولقد رأيت يوما وأنا على جانب البحر، وقد جزر الماء بعد الظهر وانكشف الجبل في البحر قريبا من الساحل، فرأيت على صخرة من ذلك الجبل عددا من النارنج الطري الأحمر الذي كأنه قطع الآن من شجرة، فقلت في نفسي، هذا وقع من بعض السفن فذهبت إليه فقبضت منها واحدة، فإذا بها ملتصقة بالحجر، (أ) وإذا بها حيوان يضطرب في يدي ويتحرك، فتركته ونظرت إليه، وإذا فمه في موضع العرجون الذي يتعلق منه (ب) النارنج..."[2]

يقول في موضع آخر:" ولقد رأيت سمكة سوداء بطول الذراع سوداء الظهر بيضاء البطن فخرجت من البحر وطارت في الهواء ما شاء الله تعالى ثم ألقت نفسها إلى البحر فسألت عنها، فقالو: اسمها الخطاف."[3]

ويقول أيضا حول ما شاهده من مخلوقات بحر الظلمات:" وبذلك البحر رأيت سمكة كأنها الترس العظيم، مدورة كبيرة بيضاء، لا شبه السمك ولها رأس في جسدها وفم وأنياب وذنب أيضا قصير عريض، وجانبان عريضان رقيقان كأنهما أجنحة لها وبها تتحرك في الماء، فهي مدورة كالترس، ولها بطن كبير، رأيتها وقد شقوا بطنها وأخرجوا

---

[1] أبو حامد الغرناطي: تحفة الأباب ونخبة الإعجاب، ص127.

[2] المصدر نفسه، ص122.

[3] المصدر نفسه، ص124.

حشوتها، وفيه كبد كبيرة وقلب ورئة حمراء كحشوة الغنم الكبير السمين، ولها شحم كثير ولحمها أبيض لا يشبه لحم السمك، فسألت عنا فقالوا: هذه تسمى البقرة."[1]

كما تحدث أيضا عن مشاهدته لجزيرة صقلية الواقعة في بحر الروم، يقول:" وقد رأيت جزيرة صقلية لما ذهبت إلى الإسكندرية سنة إحدى عشرة وخمسمائة."[2]

" فالغرناطي" في كتابه " تحفة الألباب ونخبة الإعجاب" اعتمد بكثرة على مشاهداته خلال رحلاته التي قام بها.

2– المعايشة:

من المصادر التي اعتمدها " الغرناطي" في تشكيله لصورة البحر في كتابه المعايشة، ومن الأمثلة على ذلك نقله لما وجده من أهوال البحر ومن عجائب حيواناته يقول:" ولقد كنت في مجمع البحرين في سفينة فخرجت سمكة من البحر، مثل الجبل العظيم، فصاحت صيحة لم أسمع قط أوحش منها، ولا أهول ولا أقوى منها فكاد أن ينخلع (أ) قلبي، وسقطت على وجهي أنا وغيري، وألقت نفسها في البحر، واضطرب البحر علينا وعظمت أمواجه وخفنا الغرق حتى نجانا الله عز وجل، وسمعت الملاحين يقولون: هذه السمكة تعرف بالبغل."[3]

---

[1] أبو حامد الغرناطي: تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، ص127.

[2] المصدر نفسه، ص127-128.

[3] المصدر نفسه، ص119-120.

ويقول أيضا:" ولقد كنت مرة في زورق أنظر إلى ماء البحر إذ مرت بي قطعة شبكة مقدار ذراع في مثله، مفتولة الخيوط، مربعة العيون ظاهرة العقد، كأنها قطعة من شبكة صياد، فأخذتها من البحر، فاضطربت في يدي فألقيتها في البحر وسبحت وغاصت في البحر وهي من حيوانات البحر."[1]

ويقول أيضا في حديثه عن الجزيرة الواقعة في بحر الخزر التي يسكنها الجن والحيات والطير الذي يفرخ بين الحيات:" وكنا نعبر عندها بالسفن فيخرج أهل السفينة يأخذون بيض ذلك الطير وفراخه من بين الحيات والثعابين ولا تأذي أحدا ."[2]

ويقول أيضا متحدثا عن نهر إتل الذي يصب في بحر الخزر:" ... مشيت (ج) عليه في زمان الشتاء وقد جمد حتى صار كالأرض تمشي الخيل والعجل وسائر الدواب عليه، وكان عرضه ألف وثمانمائة ونيف وأربعين خطوة، وفيه أنواع من السمك، كل نوع لا يشبه الآخر، السمكة فيها مائة من وأكثر وأقل."[3]

من الأحداث التي عايشها ونقلها إلينا قوله:" ولما دخلت سخسين سنة خمس وعشرين، اجتمع إلي الناس من أهل العلم وغيرهم، وفي جملتهم شيخ ضعيف له ثياب خلقة، فألقى عندي سوار ذهب وزنه أربعون مثقالا،...، قال: اشتريت سمكة بطسوج* فوجدت في بطنها هذا السيوار، فقلت، عرفه، فقال، لقد عرفته ثلاث

---

[1] أبو حامد الغرناطي: تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، ص122.

[2] المصدر نفسه، ص134.

[3] المصدر نفسه، ص136.

* بطسوج: هو نوع السمك المسمى"خفش" والذي يصنع من بيضة الكافيار، المصدر نفسه، ص137.

سنين أشده عكازي وأدور به في المساجد والأسواق والبيوت والطرقات... فقلت افتد به الأسرى من أيدي الترك، ففرح، فقال، بارك الله عليك، فرجت عني كربة..."[1]

كما نجده ينقل إلينا ما لقيه من صعوبة في العيش في مدينة بلغار بسبب قساوة مناخها يقول:" ولقد مات لي بها ولد، وكان في آخر الشتاء، فلم أقدر على دفنه فبقي في البيت ثلاثة أشهر حتى أمكن دفنه ويبقى الميت كالحجر."[2]

3– السماع والإخبار:

تعتبر رحلة " الغرناطي"– تحفة الألباب ونخبة الإعجاب– رحلة غنية بهذا المصدر من مصادر تشكيل صورة الآخر، وقد اعتمد الغرناطي في تشكيله لصورة البحر في رحلته على هذا المصدر في كثير من الأحيان حيث سجلت رحلته ما تناقلته الأحاديث عن أهوال البحر وعجائب حيواناته حيث يقول:" وتخرج في ذلك البحر سمكة عظيمة يقال لها سمكة العنبر لأنها تأكل العنبر... وربما خرجت قطعة من العنبر الذي لم تأكله دواب البحر وقد اجتمع في بعض جبال ثم ضربته الأمواج فيخرج إلى البر كقطع كبار يكون وزن الواحدة قنطار وأكثر وأقل فيأخذها من قدرت له، وهو أطيب رائحة من العنبر الذي يوجد في بطن السمك، فيما يقال، والله أعلم."[3] أيضا من الأحاديث حول عجائب مخلوقات البحر التي سمعها ويتداولها الناس قوله:" وهناك في البحر سبع من السمك

---

[1] أبو حامد الغرناطي: تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، ص137.

[2] المصدر نفسه، ص138.

[3] المصدر نفسه، ص120.

يعرف بالتنين، أسود طويل كالثعبان العظيم، أحمر العينين، له أنياب كأسنة الرماح أشر من الكوسج، وأشد وأقوى عدوانا [بحيث] يفر الكوسج منه، فيما يقال، والله أعلم..."[1]

ويقول أيضا عما سمعه عن بحر الخزر:" وأما بحر الخزر الذي عليه طربستان ويمتد إلى ناحية جرجان، وإلى بلاد الترك إلى الخزر، ويمتد إلى باب الأبواب، فإنه بحر صغير يقال إن دوره ثلاثمائة فرسخ أو نحوها، ومادته من الأنهار العظام، وفيه جزائر جماعة منها جزيرة تعمرها الجن يسمع الناس فيها أصواتهم ولا يسكنها شيء من الحيوان، وجزيرة أيضا يسكنها الجن مملوءة من أنواع الحيات والطير بفرخ بين الحيات ولا يضر فراخ الطير."[2]

كما ذكر أيضا الأحاديث التي تناقلت حول مدينة البلغار يقول:" وسمعت ببلغار وهي مدينة في آخر بلاد الإسلام في الشمال، وهي فوق سقسين بأربعين يوما، يكون النهار في الصيف عشرين ساعة، والليل أربع ساعات، ويكون الليل في الشتاء عشرين ساعة، والنهار أربع ساعات، ويشتد البرد فيها حتى إذا مات لأحد ميت، لا يقدر أن يدفنه ستة أشهر لأن الأرض تصير كالحديد ولا يمكن أن يحفر فيها قبره."[3]

إضافة إلى السماع نلاحظ أن " الغرناطي" قام بنقل أخبار الأمم فنجده ينقل ما أخبره به أحد مشايخ بغداد عن سر اشتعال النار الدائم في الجبل الواقع على سواحل بحر الروم يقول:" قال: إن تلك النار تضيء على عشرة فراسخ،[و] لا يحتاج أحد معه في تلك المواضع إلى ضوء ولا سراج في طريق، ولا في قرية لكثرة ذلك الضوء،

---

[1] أبو حامد الغرناطي: تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، ص126-127.

[2] المصدر نفسه، ص134.

[3] المصدر نفسه، ص137- 138.

ويخرج من تلك النار جمر كبار كاعدال القطن يتقطع فيقع بعضها في البر فيصير حجرا أبيض خفيفا يطفو على الماء لخفته، والذي يقع في البحر يصير حجرا أسود مثقبا يحك به الأرجل في الحمام..."[1]

كما نجده ينقل ما أخبره به الشيخ أبي العباس الحجازي عند التقائه به في مصر سنة اثني عشرة وخمسمائة حول عجائب أرض الصين والهند يقول:" دخلت جزيرة سرنديب، وهي جزيرة عظيمة في وسطها جبل الراهون الذي نزل عليه آدم، عليه السلام، وحول ذلك الجبل أشجار كثير كبار وغياض كثيرة [و] في كل موضع تلك الغياض بين تلك الأشجار حيات كبار كجذوع النخل، الحية تبتلع الآدمي والبقر والغنم وتلتف حول شجرة من تلك الأشجار العظام فتكسر في جوفها، عظام ذلك الحيوان الذي ابتلعته حتى تهضمه فلا يمكن لأحد من الناس أن يصل إلى ذلك الجبل."[2]

ويقول أيضا فيما أخبره أبو العباس:" وأعطاني ملك آخر من ملوك الصين دهنا آخر مثل الدبس، إذا دهنوا به جرحا زال ألمه والتحم في وقته قبل أن يخاط فتق مثله،... فقال: جئت منه بكثير ولكنه ذهب في جملة، من أموالي ذهبت لي في بحر الصين والهند إلى أن وصلت إلى بحر القلزم عشر سفن، وإنما بقيت في سفينة صغيرة كانت برسم المطبخ، وكان فيها جماعة من خدمي، فسلمنا الله عز وجل فيها، بعدما ذهبت ذخائري وأموالي."[3]

---

[1] أبو حامد الغرناطي: تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، ص128.

[2] المصدر نفسه، ص129.

[3] المصدر نفسه، ص130.

كما نقل ما أخبره به رجل شريف يعرف بالهاروني وهو ولد هارون الرشيد يقول :" إنه كان في بحر الهند فرأى طاووسا قد خرج من البحر أحسن من طاووس البر وأجمل ألوانا، فكبرنا لحسنه، وجعل يسبح في البحر وينظر إلى نفسه وينشر أجنحته وينظر إلى ذنبه ساعة، ثم غاص في البحر."[1]

ويقول في موضع آخر في أخبار عجائب بحر الخزر:" ولقد حدثني بعض التجار أنهم خرجت إليهم سنة من السنين سمكة عظيمة فثقبوا أذنها وجعلوا فيها الحبال وجروها فانفتحت أذنها وخرج من داخلها جارية حسناء جميلة بيضاء سوداء الشعر، حمراء الخدين عجزاء، من أحسن ما يكون النساء من سرتها إلى نصف ساقها جلد أبيض كالثوب خلقه يتصل بجسدها يستر حبها وجسدها كالإزار دائر عليها، فأخذها الرجال إلى البر، وهي تلطم وجهها وتنتف شعرها..."[2]

4– النقل عن الكتب:

يعتبر هذا المصدر من مصادر تشكيل صورة الأخر في رحلة "الغرناطي" غير موجود بكثرة وخصوصا في تصويره للبحار ورحلاته التي قام بها في هذه البحار والبلاد المحيطة بها، حيث لم يعتمد في تصويره لرحلاته البحرية سوى على كتاب "الحيوان" "للجاحظ" في حديثه عن طائر الرخ يقول:" ذكر الجاحظ في كتاب"الحيوان"وكان قد وصل إلى المغرب رجل من التجار ممن سافر إلى الصين في البحر وأقام بها مدة ، وصل إلى بلده المغرب بأموال عظيمة، وكان عنده أصل ريشة من جناح الرخ كان يسع فيها قربة من الماء، كان الناس يتعجبون من ذلك..."[3]

---

[1] أبو حامد الغرناطي: تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، ص133.

[2] المصدر نفسه، ص139.

[3] المصدر نفسه، ص131.

فالغرناطي في رحلته– تحفة الألباب ونخبة الإعجاب– لم يعتمد على النقل من كتب سابقيه بكثرة بل اعتمد على ما شاهده وعايشه وسمعه من أخبار وأحاديث من خلال أسفاره التي قام بها، وهذا ما لاحظناه عند اشتغالنا عن الجزء الذي يتحدث فيه عن رحلاته البحرية.

المطلب الثاني: عناصر تشكل صورة البحر

1– الكلمات:

تعد الكلمات من أهم العناصر التي تتشكل منها صورة موضوع ما، وهي من أكثر العناصر التي اعتمد عليها "الغرناطي" في تشكيله لصورة البحر وما حوله في رحلته" تحفة الألباب ونخبة الإعجاب"، ومن الحقول الدلالية التي استعملها الغرناطي، نجد حقل الألفاظ الدالة على الصفات: أسود، كبير، ضخم، طويل، كثير، عظيم،...

يقول " الغرناطي" في حديثه عن البحر المحيط:" اعلم أن البحر المحيط الذي أحاط بالدنيا والأرض في وسط البحر كالكرة في غدير ماء، وهو البحر الأسود الذي يعرف ببحر الظلمات."[1] فهو هنا يصفه بالسواد.

ويقول أيضا في موضع آخر في حديثه عن أسماك البحر الأسود:" ويخرج من البحر الأسود أنواع السمك الكبار..."[2]

---

[1] أبو حامد الغرناطي: تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، ص117.

[2] المصدر نفسه، ص119.

فهو هنا يصف أسماك البحر الأسود بالطول، ويقول أيضا:" وقد يخرج الله عز وجل، من البحر الأسود سمكا طوالا عظاما تعرف بالمنارة لطولها."[1]

أيضا من الكلمات التي استعملها" الغرناطي" في رحلته نجد حقل الألفاظ الدالة على الحيوانات مثل: ثعبان، الفيل، الذئاب، سمكا، السبع، الرخ، الكركدن، التنين، أنياب، السباع،...، يقول" الغرناطي" في حديثه عن اسماك بحر الظلمات:" وتخرج في ذلك البحر سمكة عظيمة يقال لها سمكة العنبر، لأنها تأكل العنبر..."[2]

ويقول أيضا في تشبيهه لحيوان من حيوانات البحر بالعجل:"ويكون أيضا في البحر نوع من الحيوان يشبه رأسه رأس العجل، وله أنياب كأنياب السباع، وجلده له شعر كشعر جلد العجل، وله عنق وصدر وبطن، وله رجلان كرجلي الضفدع، يثب عليها كما يثب(الضفدع)، وليس له يدان يعرف بالسمك اليهودي."[3]

ويقول أيضا في حديثه عن سمك بحر الروم:" ويكون في بحر الروم سمك طويل يكون طول السمكة أكثر من مائة ذراع له أنياب له أنياب كأنياب الفيل الصغير." [4]

ويقول أيضا في حديثه عن أسماك بحر الظلمات:" ويخرج من بحر الظلمات أنواع من سباع السمك لها عدوان كعدوان الذئاب والأسود الضارية، وأشد وأدهى وأضر منها نوع يسمى الكوسج."[5]

---

[1] أبو حامد الغرناطي: تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، ص120.

[2] المصدر نفسه، ص120.

[3] المصدر نفسه، ص123-124.

[4] المصدر نفسه، ص124.

[5] المصدر نفسه، ص126.

أيضا من الحقول الدلالية التي استخدمها "الغرناطي" في حديثه عن البحار وما أحاط بها، الكلمات الدالة على الخوف والرهبة من البحر وما فيه من حيوانات وما حوله مثل: الظلام، الأسود، كبير، عظيم، أهوال، الخوف، الغرق، الهلاك، تحطم، الشر... يقول الغرناطي:" أعلم أن البحر المحيط الذي أحاط بالدنيا والأرض في وسط البحر كالكرة في غدير ماء، وهو البحر الأسود الذي يعرف ببحر الظلمات، لا تدخله السفن."[1] فهو هنا يتحدث عن غموض البحر الأعظم وسواده، وعدم ركوب الناس له لخوفهم منه.

ويقول أيضا:"... ولقد كنت في مجمع البحرين في سفينة فخرجت سمكة من البحر، مثل الجبل العظيم، فصاحت صيحة لم أسمع قط أوحش منها، ولا أهول ولا أقوى منها فكاد أن ينخلع قلبي، وسقطت على وجهي أنا وغيري"[2] ، فهو هنا يصف ما لقيه هو ومن كان معه في المركب من خوف ورعب عند رؤيتهم للسمكة وسماعهم لصوتها عندما خرجت إلى سطح البحر.

أيضا من الحقول الدلالية والكلمات التي استعملها " الغرناطي" بكثرة في كتابه، حقول الألفاظ الدالة على المدن والبلدان مثل: فارس، الديبل، بلاد الحبشة، الزنج، سرنديب، مدينة، النحاس، القسطنطينية، الروم، أمة، بلغار...يقول " الغرناطي" في هذا الشأن:" ويكون في بحر الروم سمك طويل يكون طول السمكة أكثر من مائة ذراع له أنياب كأنياب الفيل الصغير، تؤخذ أنيابه وتباع في بلاد الروم وتحمل إلى سائر الدنيا."[3]

---

[1] أبو حامد الغرناطي: تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، ص 117.

[2] المصدر نفسه، ص117..

[3] المصدر نفسه، ص124.

ويقول أيضا في حديثه عن البلاد التي تحيط ببحر الخزر:" وأما بحر الخزر الذي عليه طربستان ويمتد إلى ناحية جرجان، وإلى بلاد الترك إلى الخزر،...[1]

من الحقول الدلالية التي وردت في رحلة" الغرناطي" أيضا، نجد الألفاظ الدالة على سعة البحار والأنهار التي تصب بها وكذا حجم حيواناتها مثل: العرض، الفرسخ، الطول، ثلاثة، مئة، أقل، خطوة، ذراع...

يقول" الغرناطي" في حديثه عن حدود مجمع البحرين:" فأما البحر الأسود الذي يخرج منه بحر الروم وبينهما مجمع البحرين الذي عرضه ثلاثة فراسخ، وطوله عشرون فرسخا، والله أعلم."[2]

ويقول أيضا في حديثه عن حجم سمكة رآها في البحر:" ولقد رأيت سمكة سوداء بطول الذراع سوداء الظهر بيضاء البطن..."[3]

ويقول أيضا في حديثه عن حجم وسعة نهر إتل الذي يصب في بحر الخزر:" وينصب في ذلك البحر نهر عظيم يسمى إتل يجيء من فوق بلغار من ناحية الظلمات، يكون مثل دجلة مائة مرة أو أكثر، يخرج منه إلى البحر سبعون فرعا، كل فرع كالدجلة ويبقى منه عند سخسين نهر عظيم مشيت عليه في زمن الشتاء... وكان عرضه ألف وثمانمئة ونيف وأربعين خطوة..."[4]

---

[1] أبو حامد الغرناطي: تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، ص134.

[2] المصدر نفسه، ص118.

[3] المصدر نفسه، ص124.

[4] المصدر نفسه، ص136.

2– الأسطورة:

إضافة إلى الكلمات هناك عناصر أخرى تساهم في تشكيل صورة موضوع ما ومن هذه العناصر، نجد الأسطورة، وقد اعتمدها العديد من الرحالة في تشكيليهم لصورة الآخر أو صورة موضوع ما، ومن الرحالة الذين اعتمدوا عليها في رحلاتهم الغرناطي، فالأسطورة من العناصر التي اعتمدها في تشكيله لصورة البحر وما يحيط به وما حوله من حيوان وعجائب، ومن الأساطير الذي ذكرها، حديثه عن التنين يقول:" وهناك أيضا في البحر سبع من السمك يعرف بالتنين، أسود طويل كالثعبان العظيم، أحمر العينين، له أنياب كأسنة الرماح أشر من الكوسج، وأشد وأقوى عدوانا[بحيث يفر الكوسج منه، فيما يقال، والله أعلم."[1]

فالغرناطي هنا استحضر التنين في رحلته من أجل إضفاء نوع من التشويق والإثارة إليها.

3– الخيال:

إضافة إلى عنصري الكلمات والأسطورة هناك عنصر آخر يعتمد الرحالة عليه في تشكيلهم لصورة موضوع ما، وهو من أهم العناصر ويعرف حضورا بارزا في الرحلات العربية القديمة، ومن الرحالة الذين اعتمدوا عليه نجد الغرناطي، الذي اعتمد على عنصر الخيال بكثرة في رحلته، حيث نجد العديد من الحكايات الخيالية التي لا يتقبلها عقل الإنسان، التي قصها من خلال حديثه عن البحار وما أحاط بها، منها ما أخبره به أبو العباس عن الدهن الذي إذا دهن به الإنسان نفسه لا يعمل الحديد فيه شيئا فيقول:" وكنت سمعت عن تلك الجزيرة دهنا إذا دهن به الإنسان لا يعمل الحديد فيه شيئا فأهديت إلى أخت الملك هدية وتوسلت بها إلى الملك فأعطاني حجرين، كل

[1] أبو حامد الغرناطي: تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، ص91.

واحد كالبيضة الصغيرة واحد أبيض منقط بحمرة والآخر منقط بسواد، وقال يأخذ الشيرج فيغلى حتى يذهب نصفه ويجعل هذان الحجران في الدهن ومن دهن بذلك الدهن لم يؤثر الحديد فيه شيئا حتى يغسل جسده، ومن شرب من ذلك الدهن عشرة دراهم ولا يأكل لبنا ولا ما يتخذ من اللبن لم يضره الحديد البتة."[1]

من الحكايات الخيالية أيضا التي ذكرها" الغرناطي" في رحلته نجد حديثه عن شجرة الشباب الموجودة في الجزيرة التي يعيش فيها طائر الرخ يقول:" وقد كان بعضهم طبخ في الجزيرة قدرا وحركوها ببعض عيدان الحطب الذي طبخوا به، وكان فيهم مشايخ، فلما أصبحوا رأوا المشايخ قد اسودت لحاهم، ولم يشيبوا بعد ذلك اليوم ومن أكل من ذلك الطعام فكانوا يقولون إن ذلك العود الذي حركوا به القدر من شجرة الشباب."[2]

كما تحدث أيضا عن جزيرة قال إنها واقعة في بحر الخزر يسكنها الجن يقول:"... وفيه جزائر جماعة منها جزيرة تعمرها الجن يسمع الناس فيها أصواتهم ولا يسكنها شيء من الحيوان."[3]

أيضا من الحكايات الخيالية التي ذكرها حديثه عن الجارية الحسناء التي خرجت من أذن السمكة يقول:" ولقد حدثني بعض التجار أنهم خرجت إليهم سنة من السنين سمكة عظيمة فثقبوا أذنها وجعلوا فيها الحبال وجروها فانفتحت أذنها وخرج من داخلها جارية حسناء جميلة بيضاء سوداء الشعر، سمراء الخدين عجزاء، من أحسن ما

---

[1] أبو حامد الغرناطي: تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، ص130.

[2] المصدر نفسه، ص132.

[3] المصدر نفسه، ص134.

يكون من النساء ومن سرتها إلى نصف ساقها جلد أبيض كالثوب خلقه يتصل بجسدها يستر حبها وجسدها كالإزار دائر عليها، فأخذها الرجال إلى البر."[1]

ومن خصائص البحر أنه يتسم بالغموض والكبر وكان العديد من الناس يهابون ركوبه قديما، وقد ذهبوا إلى أن هناك بحار يمكن ركوبها وبحار محظورة لا يمكن ركوبها، وهي تتسم بالظلامية والقتامة كالبحر المحيط الذي يسميه الغرناطي بحر الظلمات هنا في كناية عن الغموض الأسطوري الذي يلف هذا البحر.

4– النمط:

يعد النمط من العناصر المعتمد عليها في تشكيل صورة الآخر وهو من العناصر المشوهة لها وذلك لأنه ثابت غير قابل للتغير مهما تغير الزمن وهذا يؤدي إلى تشوه الصورة ويؤدي إلى ابتعادها عن الحقيقة، وقد اعتمد العديد من الرحالة في تشكلهم لصورة البحار في رحلاتهم على هذا العنصر من عناصر تكوين الصورة الآخر، حيث كانوا يعتبرون البحار خطيرة ومحظورة على الإنسان، يقول الغرناطي في حديثه عن البحر الأسود أو بحر الظلمات«اعلم أن البحر المحيط الذي أحاط بالدنيا والأرض في وسط البحر كالكرة في غدير ماء، وهو البحر الأسود الذي يعرف ببحر الظلمات لا تدخله السفن . [2]

[1] أبو حامد الغرناطي: تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، ص 139.

[2] المصدر نفسه، ص117.

ويقول أيضا في حديثه عن أسماك بحر الظلمات ومدى خطورتها على الإنسان: «ويخرج من بحر الظلمات أنواع من سباع السمك لها عدوان كعدوان الذئاب والأسود الضارية وأشد وأدهى وأضر منها نوع يسمى الكوسج ... يقطع الآدمي نصفين».[1]

5– السيناريو:

يعتبر السيناريو عنصرا من العناصر التي تتشكل منها صورة الآخر أو صورة موضوع ما، وقد اعتمده الرحالة العرب في تشكيلهم لصورة البحر وما أحاط به في رحلاتهم، ومن الرحالة الذين اعتمدوا عليه الغرناطي الذي اعتمد على العديد من العناصر المشكلة لصورة موضوع من خلال تصويره للبحار وما أحاط بها، ولأن فضاء البحر كان يتميّز بالغموض ويحتوي على العديد من المخاطر، وقد استعمل الغرناطي في حديثه عن البحر وما أحاط به من العجائب على قصص تدل على خطورة ركوب البحار وخطورة حيواناتها وكذا تدلّ على مدى غموض جانب البحر، يقول الغرناطي «ولقد كنت في مجمع البحرين في سفينة فخرجت سمكة من البحر، مثل الجبل العظيم فصاحت صيحة لم اسمع قط أوحش منها، ولا أهول ولا أقوى منها فكاد أن ينخلع قلبي، وسقطت على وجهي أنا وغيري، وألقت نفسها في البحر، واضطرب البحر علينا وعظمت أمواجه وخفنا الفرق حتى نجانا الله عزّ وجلّ» .[2]

فهذه الحادثة التي قصها الغرناطي تدلّ على رحلة تدلّ على الخوف والرهبة التي كانوا يشعرون بها تجاه البحر ومزاجه المتقلب.

---

[1] أبو حامد الغرناطي: تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، ص 126.

[2] المصدر نفسه، ص 119–120.

6– العلاقات الاجتماعية:

من العناصر المشكلة لصورة الآخر أو لصورة موضوع ما هناك العلاقات الاجتماعية وقد اعتمد عليها الرحالة العرب في تصويرهم وتشكيلهم لصورة البحر في رحلاتهم ومن هؤلاء الرحالة نجد الغرناطي رغم طبيعة الجزيرة العربية الجغرافية والتي يحدها البحر من ثلاث جهات إلا أنهم كانوا يهابون البحار ويخافونها يقول الغرناطي:«اعلم أن البحر المحيط الذي أحاط بالدنيا والأرض في وسط البحر كالكرة في غدير ماء، وهو البحر الأسود الذي يعرف ببحر الظلمات لا تدخله السفن».[1]

فالظلمات كناية على غموضه وخوفهم من ركوبه يقول أيضا » ولقد كنت في مجمع البحرين في سفينة فخرجت سمكة« من البحر مثل الجبل العظيم فصاحت صيحة لم أسمع قط أوحش منها، ولا أهول وأقوى منها فكاد أن ينخلع قلبي، وسقطت على وجهي أنا وغيري وألقت نفسها في البحر واضطرب البحر علينا وعظمت أمواجه وخفنا الغرق من نجانا الله عز وجلّ» [2]

ويقول أيضا ففي موضع آخر: «وقد يخرج الله عزّ وجلّ من البحر الأسود سمكا طولا عظاما تعرف بالمنارة لطولها يقال أنها تخرج في البحر إلى جانب السفينة الكبيرة فتلقي نفسها على السفينة فتحطم السفينة وتهلك كل من فيها، فإذا أحس بها أهل السفينة قبل أن تلقي نفسها صاحوا وكبروا وضجوا وضربوا الطبول ونفخوا الصور

---

[1] أبو حامد الغرناطي: تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، ص120.

[2] المصدر نفسه، ص 121.

والبوقات والصنوج ونقروا الطوسات والأسطال والأخشاب والألواح والتراس فربما أذا أسمعت تلك الأصوات ونفرت وصرفها الله عزّ وجل عنهم بفضله ورحمته» [1]

غير أن خوفهم وهيبتهم من البحار لم تمنع استفادتهم منها حيث كانوا يستفيدون من البحار ومن حيواناتها وثرواتها، يقول الغرناطي: «وتخرج في ذلك البحر سمكة عظيمة يقال لها سمكة العنبر لأنها تأكل العنبر وذلك أن العنبر يخرج من بحر الظلمات من عيون في جبال البحر كما يخرج القير، فتأكله السمكة ومن كان مثلها من السمك فإذا أراد الله تعالى أن يخرج ذلك العنبر من جوفها رزقا لمن شاء من عباده سلط الله عليها سمكة من سمك البحر أكبر منها تطردها من البحر الأسود وتخرجها إلى بحر الروم،...فتلقي نفسها في موضع قليل الماء....فيدخل الناس إليها بالسفن فيشقون جوفها ويأخذون ذلك العنبر منه » [2]

[1] أبو حامد الغرناطي: تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، ص 122.

[2] المصدر نفسه، ص121.

المطلب الثالث: حالات فهم البحر قراءاته

1– حالة التشويه السلبي:

توجد في رحلة الغرناطي العديد من الأمثلة على هذه الحالة حيث أن العرب كانوا يهابون البحار وما يحيط بها من جزائر وكذا حيواناته ويخافونها، ويرون أن البحار غامضة وشديدة الخطورة عليهم، يقول الغرناطي في حديثه عن خطورة البحر الأسود وغموضه وعدم دخول السفن إليه: " اعلم أن البحر المحيط والذي أحاط بالدنيا في وسط بحر كالكرة في غدير الماء، وهو البحر الأسود الذي يعرف ببحر الظلمات، ولا تدخله السفن "[1].

فالظلمات هنا هي كناية عن غموضه وخوفهم من ركوبه، ويقول أيضا:" ولقد كنت في مجمع البحرين في سفينة فخرجت سمكة من البحر مثل الجبل العظيم، فصاحت صيحة لم اسمع قط أوحش منها، ولا أهول ولا أقوى منها فكاد أن ينخلع قلبي، وسقطت على وجهي أنا وغيري، وألقت نفسها في البحر، واضطرب البحر علينا وعظمت أمواجهه وخفنا الغرق حتى نجانا الله عز وجل".[2]

ويقول متحدثا في نفس الشأن عن خطورة حيوانات البحر: " وقد يخرج الله عز وجل من البحر الأسود سمكا طوالا عظاما تعرف بالمنارة لطولها يقال أنها تخرج في البحر إلى جانب السفينة الكبيرة، فتل نفسها على السفينة وتهلك كل من فيها، فإذا أحس بها أهل السفينة قبل أن تلقي نفسها صاحوا وكبروا وضجوا وضربوا

---

[1] أبو حامد الغرناطي: تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، ص117.

[2] المصدر نفسه، ص119-120.

الطبول ونفخوا الصور والبوقات والصنوج... فربما إذا سمعت تلك الأصوات نفرت وصرفها الله عز وجل عنهم بفضله ورحمته"[1] .

2– حالة التشويه الإيجابي:

ورحلة الغرناطي تزخر بالأمثلة حول هذه الحالة حيث أن العرب كانوا يرون أنه لا يوجد أعظم وأكبر من البحار وكذا جزائره وحيواناته، يقول الغرناطي متحدثا عن عظم وكبر حيوانات البحر:" ويخرج الله تعالى من البحر الأسود سمكا كبارا كالجبال يتبعها سمك أكبر منها ليأكلها، فتفر من بين يديه فتعبر مجمع البحرين، وتأتي السمكة الكبرى لتعبر في طلبها فيضيق عنها مجمع البحرين لكبرها وعظم جسدها، فترجع إلى البحر الأسود "[2].

ويقول في نفس الشأن: " لقد كنت في مجمع البحرين في سفينة فخرجت سمكة من البحر مثل جبل العظم، فصاحت صيحة لم أسمع قط أوحش منها، ولا أهول ولا أقوى منها فكاد أن ينخلع قلبي، وسقطت على وجهي أنا وغيري، وألقت نفسها في البحر، واضطرب البحر علينا وعظمت أمواجه وخفنا الغرق حتى نجانا الله عز جل"[3].

ويقول أيضا في الصدد نفسه:" وتخرج في ذلك البحر سمكة عظيمة يقال لها سمكة العنبر "[4].

---

[1] أبو حامد الغرناطي: تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، ص120-121.

[2] المصدر نفسه، ص119.

[3] المصدر نفسه، ص119-120.

[4] المصدر نفسه، ص120.

ويقول أيضا: " وقد يخرج الله عز وجل، من البحر الأسود سمكا طوالا عظاما تعرف بالمنارة لطولها، يقال إنها تخرج في البحر إلى جانب السفينة الكبيرة، فتلقي نفسها على السفينة فتحطم السفينة وتهلك كل من فيها، فإذا أحس بها أهل السفينة قبل أن تلقي نفسها صاحوا وكبروا وضجوا وضربوا الطبول ونفخوا الصور... فربما إذا سمعت تلك الأصوات نفرت وصرفها الله عز وجل عنهم بفضله ورحمته"[1]. ويقول أيضا متحدثا عن كبر جزر البحر وعظمتها: " وفي بحر الروم (من الجزائر كثير جدا منها جزيرة تسمى بسردانية، وهي عظيمة جدا..."[2] .

ويقول متحدثا في الشأن نفسه: " دخلت جزيرة سرنديب وهي جزيرة عظيمة في وسطها جبل الراهون الذي نزل عليه ادم عليه السلام "[3].

3– حالة التسامح:

تحمل رحلة الغرناطي العديد من الأمثلة حول هذه الحالة التي تدل على تسامح العرب مع البحر وبنائهم لعلاقة إيجابية معه تقوم على الأخذ والعطاء، يقول الغرناطي متحدثا عن الإستفادة من البحار وحيواناتها: " وتخرج في ذلك البحر سمكة عظيمة يقال لها سمكة العنبر لأنها تأكل العنبر، وذلك أن العنبر يخرج من بحر الظلمات من عيون في جبال البحر كما يخرج القير، فتأكله تلك السمكة ومن كان مثلها من السمك، فإذا أراد الله تعالى أن يخرج ذلك العنبر من جوفها رزقا لمن يشاء من عباده سلط عليها سمكة من سمك البحر أكبر منها تطردها من

---

[1] أبو حامد الغرناطي: تحفة الألباب ونخبة الإعجاب،ص120.

[2] المصدر نفسه، ص127.

[3] المصدر نفسه، ص129.

البحر حتى تخرجها إلى بحر الروم،... فتلقي نفسها في موضع قليل الماء فلا يمكنها الحركة، فيدخل الناس إليها بالسفن فيشقون جوفها ويأخذون ذلك العنبر منه"[1].

ويقول أيضا: " ويكون في بحر الروم سمك طويل طول السمكة أكثر من مائة ذراع له أنياب كأنياب الفيل الصغير، تؤخذ أنيابه وتباع في بلاد الروم وتحمل إلى سائر الدنيا، وهو أحسن وأقوى من ناب الفيل"[2].

ويقول أيضا: "...، ويأخذون تلك النصول فيلقونها في البحر الأسود فيخرج الله تعالى، لهم سمكة كالجبل تتبعها سمكة أكبر منها أضعافا تريد أكلها فتلق نفسها قريبا من البر بحيث لا يمكنها الرجوع، فيدخلون إليها بالسفن ويقطعون من لحمها شهورا حتى يملؤا بيوتهم ويدخرون من لحمها، ويقددون ما لا نهاية له وذهنها، ..."[3]

---

[1] أبو حامد الغرناطي: تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، ص120.

[2] المصدر نفسه، ص124.

[3] المصدر نفسه، ص138-139.

الخاتمة

وبعد، فقد حاولنا من خلال هذه الدراسة استجلاء صورة البحر في أدب الرحلات العربية القديمة، كما حاولنا الكشف عن الدور الفعال الذي قام به الرحالة في وصفهم للبحار وتحديدهم لحدودها وحجمها وكل ما يتعلق بها، من خلال مشاهداتهم ومطالعتهم للكتب وما سمعوه خلال أسفارهم.

كما كشفت الدراسة أن المرجعيات التي اعتمد عليها الرحالة في إيراد صورة البحر كانت متعددة، فقد اعتمد الرحالة في أغلب صور البحر التي أوردوها على المشاهدة والمعاينة، فجاءت الصورة في هذه الحالة صورة مباشرة، كما اعتمد الرحالة أحيانا على المسموع من أفواه الرواة والبحارة أو عامة الناس، من صور ومشاهد تتعلق بالبحر، وهي صورة تشكلت في الغالب مما قد استقر في وعي الناس، كما تقل بعض الرحالة بعض صور البحر من مدونات الجغرافيين والمؤرخين والرحالة وغيرهم ممن سبقوه.

كما كشفت الدراسة على أن الرحلات العربية القديمة تحمل ثروة هائلة من المفردات المتنوعة التي ساهمت في تشكيل صورة البحر في الرحلات العربية القديمة.

ولأن الرحالة يؤثر ويتأثر بما رأى وسمع وقرأ، ثم ينتقل إلى كتابة الظاهرة وتدوينها، فقد جاء حديث الرحالة العرب عن البحر متباينا ومختلفا، لاختلافهم في مستوى المؤثرات السابقة في بناء الصورة، ورغم ذلك فالملاحظ من النصوص الرحلية أن هناك جوامع مشتركة بين تلك الصور، وقد بدت صورة البحر عند الكثير من الرحالة غير مألوفة، حيث أنهم كانوا يرونه فضاءا غريبا عنهم ومليئا بالغموض والمخاطر، ويدخل في باب العجائبية والغرائبية والأسطورية.

ومما كشفت عنه هذه الدراسة أيضا أن البكري اعتمد في تشكيله لصورة البحر في رحلته المسالك والممالك على ما قرأه ووجده في الكتب وأحيانا على ما سمعه من أفواه الناس، ولم يعتمد على مصدري المشاهدة والمعايشة

لأنه لم يرتحل قط، على خلاف الغرناطي الذي لم يستعمل النقل عن الكتب في وصفه لصورة البحر سوى في موضع واحد، فقد اعتمد أكثر على ما شاهده وعايشه وسمعه من الأخبار خلال ترحاله، في حين أن المسعودي اعتمد على جميع المصادر خلال تشكيله لصورة البحر.

تضع رحلة الغرناطي تحفة الألباب ونخبة الإعجاب الكثير من الأخبار عن عجائب وغرائب مخلوقات البحار وجزائرها، على خلاف رحلتي كل من المسعودي والبكري اللذان لم يهتما بالجانب العجائبي كثيرا.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم برواية ورش

أولا: المصادر

1– أبو القاسم الزياني، الترجمانة الكبرى– في أخبار المعمور برا وبحرا–، تح: عبد الكريم البيبلالي، دط، دار المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط– المغرب، 1991.

2– أبو القاسم بن حوقل النضيب: صورة الأرض، د ط، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1992.

3– أبو حامد الغرناطي: تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، تح: إسماعيل العربي، ط1، منشورات الآفاق الجديدة، المغرب، 1993.

4– أبو عبيد البكري: المسالك والممالك، تح: أدربان فان يوفن وأندري فيري، د ط، دار العرب الإسلامي، د ب، 1992.

5– المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج1، ط1، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 2005.

ثانيا: المراجع

أ– المعاجم والقواميس:

1– ابن منظور: لسان العرب، تح: عامر أحمد حيدر، المجلد 3، مادة صور، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان 2005.

2– ابن منظور: لسان العرب، ج3، د ط، دار صادر، بيروت، لبنان، د ت.

3– خير الدين الزركلي: الأعلام، ج4، ط15، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 2002.

4– الزبيدي: تاج العروس، المجلد6، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2007.

5– سعيد علوش: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1985.

6– فيصل لحمر: معجم السيميائيات، ط1، الدار العربية للعلوم ناشرون، 2010.

7– محمد التنوجي: المعجم المفضل في الأدب، ج1، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1992.

8– المنجد في اللغة والأعلام، ط40، دار المشرق، بيروت، لبنان، 2003.

9– منير البعلبكي: معجم أعظم المورد، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1992.

10– ياقوت الحموي: معجم البلدان، تح: عبد العزيز الجندي، ج5، دط، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ت.

11– ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج1+ ج2+ ج3+ ج4، د ط، دار الصادر بيروت، لبنان، د ت.

ب– الكتب:

– الكتب العربية:

1– أحمد بن خالد الناصري: الإستقصاء لأخبار دول المغرب بالأقصى، تح: جعفر الناصري ومحمد الناصري، ج4، دط، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1997.

2– جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، ج2، د ط، دار الهلال، د ب، د ت.

3– شوقي ضيف: الرحلات، ط4، دار المعارف، القاهرة، مصر، د ت.

4– عبد المجيد حنون: صورة الفرنسي والفرنسية في الرواية المغاربية، ط2، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، قسنطينة، الجزائر، 2013.

5– علي إبراهيم كردي: أدب الرحلة في المغرب والأندلس، د ط، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، سوريا، 2013.

6– فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، ط2، مكتبة الدار العربية للكتاب، مصر، 2002.

7– ماجدة حمود: مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن "دراسة"، منشورات اتحاد الكتاب العرب.

8– محمد علي الصابوني: صفوة التفاسير، المجلد 1، ط4، دار القرآن الكريم، بيروت، لبنان، 1981.

9– ناصر عبد الرزاق الموافي: الرحلة في الأدب العربي "حتى نهاية القرن الرابع الجري"، ط1، مكتبة الوفاء، مصر، 1995.

10– نقولا زيادة: الجغرافية والرحلات عند العرب، د ط، الشركة العالمية للكتاب، دار الكتاب اللبناني، لبنان، 1987.

– الكتب المترجمة:

1– أغناطيوس كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، نقل: صلاح الدين عثمان خاشم، مراجعة: ايغور بليايف، القسم 1+ القسم 2، د ط، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، د ب، د ت.

2– دانييل هنري باجو: الأدب العام المقارن، تر: غسان السيد، منشورات اتحاد الكتاب العرب.

ج– المجلات:

1– زهرة مزوني: دراسة الصورة في الأدب المقارن، مجلة الباحث، العدد16، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، الجزائر.

2– عبد الرحمن بوعلي: الصورولوجيا وإشكالية التمثلات الأدبية، المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد12، العدد2، أفريل 2020، جامعة الشارقة، الإمارات العربية المتحدة.

د– المواقع الإلكترونية:

1– رهام غازي أبو دولة: تاريخ جزر الخالدات، موقع موضوع، 30:13، 25 أكتوبر 2018.
https://mawdoo3.com

قائمة المحتويات

المحتويات	الصفحة
مقدمة	أ–ت
الفصل الأول: مقاربة نظرية لمصطلحات الصورة والآخر	
المبحث الأول: نصوص البحر في الرحلات العربية القديمة	05
المطلب الأول: نصوص المسعودي حول البحر	05
المطلب الثاني: نصوص ابن حوقل حول البحر	15
المطلب الثالث: نصوص البكري حول البحر	24
المطلب الرابع: نصوص الغرناطي حول البحر	34
المطلب الخامس: نصوص أبو القاسم الزياني حول البحر	46
المبحث الثاني: الصورة في الأدب المقارن	55
المطلب الأول: تعريف الصورة	55
المطلب الثاني: مفهوم الصورولوجيا	59
المطلب الثالث: مصادر الصورة	61

المطلب الرابع: عناصر تكوين الصورة الأدبية الآخر	62
المطلب الخامس: حالات فهم الآخر وقراءته	72
الفصل الثاني: صورة البحر في رحلات المسعودي– البكري– الغرناطي	
المبحث الأول: صورة البحر في رحلة لبحر مروج الذهب ومعادن الجوهر"للمسعودي"	76
المطلب الأول: مصادر صورة البحر	76
المطلب الثاني: عناصر تشكل صورة البحر	83
المطلب الثالث: حالات فهم البحر وقراءاته	93
المبحث الثاني: صورة البحر في رحلة المسالك والممالك "للبكري"	96
المطلب الأول: مصادر صور البحر	96
المطلب الثاني: عناصر تشكل صورة البحر	99
المطلب الثالث: حالات فهم البحر وقراءته	108
المبحث الثالث: صورة البحر في رحلة تحفة الألباب ونخبة الإعجاب	111
المطلب الأول: مصادر صورة البحر	111

المطلب الثاني: عناصر تشكل صورة البحر	119
المطلب الثالث: حالات فهم البحر قراءاته	128
الخاتمة	134
قائمة المصادر والمراجع	137
قائمة المحتويات	
الملخص	

الملخص

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن صورة البحر في الرحلات العربية القديمة وتبيانها من خلال ما قدمه الرحالة العرب في مؤلفاتهم، وما حملته بين طياتها من الأخبار والوقائع التي تتعلق بالبحر.

وقد جاءت هذه الدراسة في مقدمة وفصلين وخاتمة، تناولت المقدمة أسباب اختيار الموضوع، والأهداف التي تسعى إليها الدراسة أما الفصل النظري فقد ناقش نصوص البحر في بعض الرحلات العربية القديمة، كما ناقش مفهوم الصورة وعلم الصورولوجيا، وتناول عناصر تشكل صورة الآخر ومصادر تشكلها وكذا حالات فهم الأخر وقراءاته.

ودرس الفصل الثاني مصادر تشكل صورة البحر في رحلات كل من المسعودي والبكري والغرناطي، إضافة إلى عناصر تشكل صورة البحر في هذه الرحلات، كما تناول حالات فهم البحر وقراءاته.

الكلمات المفتاحية: الصورة، البحر، الرحلات العربية القديمة، الصورولوجيا.

Summary:

This study aims to reveal the image of the sea in the ancient Arab voyages and to clarify it through what the Arab travelers presented in their books, and the news and facts related to the sea.

This study came in an introduction, two chapters and a conclusion. The introduction dealt with the reasons for choosing the subject, and the objectives that the study seeks. The theoretical chapter discussed the sea texts in some ancient Arab journeys, as well as the concept of image and morphology, and dealt with the elements that form the image of the other and the sources of its formation, as well as cases of understanding The other and his reading.

The second chapter studied the sources that form the image of the sea in the travels of Al-Masoudi, Al-Bakri, and Al-Gharnati, in addition to the elements that form the image of the sea in these journeys, and it also dealt with cases of understanding the sea and its readings.

Keywords: image, sea, ancient Arab journeys, surology.